الشيخ عز الدين القسّام: مصلح وقائد ثورة

بشير موسى نافع*



في الصباح الباكر من يوم الأربعاء ١٩٣٥/١١/٢٠ اندلعت مواجهة بين قوة شرطة بريطانية ومجموعة صغيرة من الفلسطينيين المسلحين على تلال قرية يعبد في منطقة جنين. وعلى إثر الاشتباك الذي استمر لمدة ثلاث ساعات، قتل قائد المجموعة المسلحة، الشيخ عز الدين القسّام وأربعة من رجاله، وأسر أربعة آخرون[١]. أما الإنجليز فقد قتل منهم شرطي وجرح آخر. وقد أصدرت السلطات البريطانية بياناً مختصراً نعتت فيه المجموعة المقاتلة بقطّاع الطرق[٢]. ويبدو أنها كانت غير قادرة على تمييز أهمية الحدث أو توقّع تداعياته. كانت مجموعة القسّام في الحقيقة ذات دوافع كبيرة، ومصممة على القيام بثورة شعبية عارمة ضد الإنجليز والصهاينة، وقد تولدت من جذور عربية وإسلامية؛ ومن حالة الإحباط السياسي الذي أصاب المجتمع الفلسطيني عقب اضطرابات البراق عام ١٩٢٩؛ وأيضاً من الفوضى وعدم النجاح الّذين ميزا الحركة الوطنية الفلسطينية خلال السنوات السابقة.

تتناول هذه الدراسة جذور وبنية وظروف ونتائج الحركة القسامية، وتحاول فهم شخصية القسّام في سياق حركة الإصلاح العربي والإسلامي، ودورها في التنوير القومي لطلابها وأبنائها تجاه القوى الغربية في فترة ما بين الحربين العالميتين، كما تضعها في السياق الوطني الفلسطيني، وآمل أن تساعد هذه المقاربة على فهم الظروف التي هيأت الأرضية لانطلاق الثورة الفلسطينية ما بين عامي ١٩٣٦ و١٩٣٩، كما آمل أن تساعد أيضاً في فهمنا لعروبة القضية الفلسطينية وإسلاميتها.

العالِم

ولد محمد عز الدين في جبلة في منطقة اللاذقية جنوبي سوريا، عام ١٨٨٣[٣]. كان والده (عبد القادر مصطفى القسام)

---

١ جريدة الجامعة الإسلامية ٢١ تشرين ثاني ١٩٣٥. جريدة جريدة الجامعة العربية، ٢٢ تشرين ثاني ١٩٣٥، مجلة الفتح، ٢٨ تشرين ثاني ١٩٣٥.

٢ جريدة بالستاين بوست (Palestine Post)، ٢١ تشرين ثاني ١٩٣٥. لقد كان الصهاينة، وبشكل أكيد، أكثر عمقاً في تقدير الحادثة من نظرائهم البريطانيين. كتب موشي بيلينسون وهو قائد صهيوني: «هؤلاء الأشخاص ليسوا قطّاع طرق، لأن أسماء بعضهم، ووضعهم الاجتماعي، وموقعهم السياسي، تحمل شهادة واضحة لانخراط خطباء المساجد، ومدراء المدارس، ومسؤولي جمعيات الشبان المسلمين في قطع الطرق. إنهم ليسوا عصابة لصوص لكنهم جسم للإرهاب السياسي أولئك الذين واجهوا السلطات في فلسطين». مقتبس في شاي لاشمان: الثورة العربية والإرهاب في فلسطين ١٩٢٩-١٩٣٩، حالة الشيخ عز الذين القسّام وحركته، (بالإنجليزية)، وفي Kedouri, Elie, and Haim, Sylvia G. (Editors), *Zionism and Arabism in Palestine and Israel*, Frank Cass, London, (1982), p. 68.

٣ يبدو أن هذا هو التقدير الصحيح لتاريخ ميلاده، وحسب حسين عمر حمادة، (جوانب من حياة الشيخ عز الدين القسام)، وقائع فلسطينية، ٢:١ (١٩٨٦)، ص. ٥١، فإن السجلات المدنية الرسمية في جبلة تشير إلى السنة ١٣٠١ هجرية التي توافق ١٨٨٣ ميلادية، نمر الخطيب، أحداث النكبة ونكبة فلسطين (بيروت: دار مكتبة الحياة،١٩٦٧)، ص. ١٥٤، وخير الدين الزركلي، الأعلام، (بيروت: دار العلم للملايين،١٩٨٩)، الجزء السادس، ص. ٢٦٧، أشار إلى السنة ١٨٨٢ والتي تظل معقولة نظرا لعدم تطابق التقويمين الهجري والميلادي. عبد اللّٰه. س. شليفر، «حياة وفكر عز الدين القسام»، الفصلية الاسلامية (Islamic Periodica)، ٢٣:٢ (١٩٧٩)، ص.٦٢، علي حسين خلف، «تجربة الشيخ عز الدين القسام: مدرسة جامع الاستقلال، شؤون فلسطينية، العدد ١٢٦ (١٩٨٢)، ١٧، وسميح حمودة،

---

* كاتب وباحث يحمل الدكتوراة في التاريخ، ويعمل باحثاً في مركز الجزيرة للأبحاث.

مرشداً للطريقة القادرية الصوفية في جبلة ومدرساً في مدرستها الإسلامية، وفي مرحلة معينة كان له موقع بسيط في المحكمة الشرعية العثمانية[٤]. تلقى عز الدين القسّام تعليمه المبكر في كتّاب جبلة، في زاوية الإمام الغزالي، كما حضر حلقة الشيخ سالم طبارة، العالم البيروتي المعروف الذي استقر في جبلة لبعض الوقت[٥]. وفي مستهل القرن العشرين أرسل القسّام إلى الأزهر في القاهرة ليدرس للدرجة الجامعية[٦]. رافق القسّام في هذه المرحلة المهمة في حياته، عدداً من طلبة العلم الشرعي الشباب، والذين كان من ضمنهم أخوه فخر الدين، وعز الدين التنوخي، وهو ابن عائلة دمشقية نبيلة، أصبح على علاقة خاصة وأليفة مع القسام. ويعتقد بشكل كبير أن القسّام درس مع المصلح العربي الكبير محمد عبده، وأنه التقى رشيد رضا[٧]. يشكك عبد الله شليفر في سيرته القصيرة حول القسّام بهذه العلاقة مع محمد عبده وتأثيره اللاحق عليه[٨]. ومن المهم توضيح هذه النقطة لتحديد الإطار المرجعي للقسام في الوقت الذي كانت فيه طبقة «العلماء» تمر بتحولات جذرية عندما بدأت حياة عز الدين القسّام بالتبلور، لقد اتضح أنه مقدر له دور عام أكثر من دور ثقافي أو تعليمي. لقد كان راعياً مثالياً في خدمة المجتمع وفي طليعة حركته: سياسيةً كانت أم غير ذلك. كان ينطلق ويعمل من فهم معين للإسلام فيما كان يعتقد أنه واجبه، وقد ظهر أنَّ هذا الفهم يختلف عن التقاليد المعروفة للنظام الملّي العثماني. لقد كان القسّام في الحقيقة ناقداً لعدد من مظاهر التقاليد، كغيره من مصلحي عصره، ويظهر انتماؤه الرئيسي للإسلاميين العرب المعاصرين في عدد من مراحل حياته، وعلاقته بعز الدين التنوخي هي المؤشر الأول المهم.

كان التنوخي (١٨٨٩–١٩٦٦) مرتبطاً بحلقات السلفية في دمشق في نهايات القرن التاسع عشر وبدايات القرن العشرين[٩]. وبعد عودته من الأزهر صرّح بآرائه الإصلاحية والعروبية. وعندما أرسل التنوخي إلى فرنسا لدراسة العلوم الزراعية عام ١٩١٠، حافظ القسّام على العلاقة مع أسرته[١٠]. عرف التنوخي خلال سنوات الحرب العالمية الأولى بنشاطه السياسي في إطار الحركة العربية، بعكس القسام. وقد تخلى التنوخي عن انتمائه للجيش العثماني والتحق بجيش فيصل العربي لفترة بسيطة، ولكنّه كالعديد من الإصلاحيين الآخرين فقد انتهى به الأمر إلى القاهرة حيث بقي هناك حتى نهاية الحرب. بعد تأسيس الحكومة العربية في دمشق التحق التنوخي بالمجلس التعليمي وكان من بين مؤسسي الأكاديمية العربية في دمشق.

في بلدة جبلة الصغيرة، وبعيداً عن صخب الحياة في دمشق، تابع القسّام خطاً إسلامياً إحيائياً. وأصبح معلماً في مدرسة البلدة الإسلامية، التي كانت تشرف عليها الطريقة القادرية. وقد تجنب القسّام المواجهة مع النظام الصوفي للتعليم، لإدراكه لسيطرة الصوفية ونفوذها في جبلة، لكنه أضاف دراسة القرآن وتفسير القرآن والفقه إلى المنهج التعليمي. أطلق القسّام حملة أخلاقية تشجع على الالتزام بالأخلاقيات والسلوكيات الدينية، من وجهة نظر الإسلام التقليدي، وعلى محاربة مظاهر القمار وشرب الخمر[١١]، مستغلاً موقفه كإمام لمسجد البلدة (مسجد إبراهيم بن أدهم). كان العالِم الإسلامي الشاب يعلي من شأن الدين الرسمي مقابل الدين الشعبي، في كل من المدرسة والمسجد.

كان اجتياح طرابلس الليبية حدثاً مهماً في عمل القسّام المبكر وفي الشحنات الأيديولوجية التي أسهمت في تشكيل عالمه، ولم تكن ردة فعله محصورة بما هو متوقع من رجل دين محلي، كالدعاء الداعم المكرر، إنما امتدت لتكون ردة فعل عالم مازالت نظرته لعالم الإسلام ودوره تتسع بشكل كبير، فنادى بالجهاد وجمع التبرعات لدعم جهود الحرب[١٢]. وفي منتصف صيف ١٩١٢، وبينما استمرت المقاومة العربية والعثمانية للغزو الإيطالي بقيادة عزيز علي المصري وأنور باشا، نظّم القسّام مجموعة من المتطوعين وسافر إلى الاسكندرونة حيث اعتقد أنّ السلطات العثمانية ستزودهم بوسيلة نقل إلى الاسكندرية قرب الحدود الليبية. لكن في ذلك الوقت جاءت حكومة جديدة في الآستانة وكانت المفاوضات الإيطالية العثمانية للتسوية جارية، وبعد الانتظار لمدة شهر تقريباً في الاسكندرونة أعادت السلطات العثمانية القسّام ومجموعته إلى جبلة، وفي شهر تشرين أول وقعت معاهدة

الوعي والثورة: دراسة في حياة وجهاد الشيخ عز الدين القسام، ١٨٨٢-١٩٣٥، القدس: جمعية الدراسات العربية، ١٩٨٥، ص. ٢١، هؤلاء أيضاً أشاروا إلى عام ١٨٨٢. ورغم ذلك التاريخ، ففي بيان نويهض الحوت، الشيخ المجاهد عز الدين القسّام في تاريخ فلسطين، بيروت، دار الاستقلال، ١٩٨٧، ص. ٢٥، تبنت تاريخ ١٨٧١، بلا دليل فعلي.

٤ أمين سعيد في جريدة الجامعة الإسلامية، ٢٥ و٢٦، تشرين ثاني ١٩٣٥، شليف، مصدر سابق، ص. ٦٢، خلف، مصدر سابق، ص. ١٨.

٥ شليفر، مصدر سابق، ص. ٦٢.

٦ الجامعة الإسلامية، ٢٥ و٢٦ تشرين ثاني ١٩٣٥، جريدة الجامعة العربية، ٢٠ كانون أول ١٣٥، خلف، مصدر سابق، ص. ١٩.

٧ الجامعة الاسلامية،٢٥ و٢٦، تشرين ثاني ١٩٣٥، ابراهيم السيد عيسى المصري، مجمع الآثار العربية، دمشق: مطبعة ابن زيدون، ١٩٣٦، ص. ١٥١-٢، زكي محمود مجاهد، الأعلام الشرقية في لمعات الرابعة عشرة الهجرية، القاهرة: مكتبة المجاهد، ١٩٥٠، الجزء ٢، ص. ١٩٣٩، الزركلي، مصدر سابق، الجزء السادس، ص. ٢٦٧.

٨ شليفر، مصدر سابق، ص. ٦٤.

---

٩ محمد عبد اللطيف صالح فرفور، أعلام دمشق في القرن الرابع عشر الهجري، دمشق: دار الملاح، ١٩٨٧، ص. ٢٠٨، الزركلي، مصدر سابق، الجزء ٤، ص. ٢٢٩.

١٠ شليفر، مصدر سابق، ٦٤ .

١١ الجامعة الاسلامية، ٢٥ و٢٦ تشرين ثاني ١٩٣٥، المصري، مصدر سابق، ص. ١٥٢.

١٢ زهير مارديني، ألف يوم مع الحاج أمين، بيروت: دار الفرقان، ١٩٧٧، ص. ٢٨٢.

سلام بين الحكومتين العثمانية والإيطالية.

شكل الاحتلال الإيطالي لليبيا صدمة للشعوب العربية وعزز عدم ثقة العرب بحكام الآستانة ما بعد السلطان عبد الحميد. ورغم ذلك ورغم اطلاعه الشخصي على الخلل في الحكومة، ورغم المعارضة المتنامية في أوساط الدوائر الإصلاحية العربية للآستانة، فقد ظهر أن القسّام أخذ جانب الدولة والخليفة في الحرب العالمية الأولى، في موقف مشابه لموقف عربي إسلامي آخر هو الأمير شكيب أرسلان[١٣]. مع نهاية الحرب كانت معظم المنطقة الساحلية اللبنانية – السورية قد أصبحت تحت الاحتلال الفرنسي، بالإضافة إلى معظم شمال سوريا بما فيها اللاذقية وإقليم العلويين[١٤].

بينما كانت فرنسا تتفاوض مع حليفتها بريطانيا حول مصير الأجزاء العربية من الدولة العثمانية، فإنها رفضت الاعتراف بمطالب العرب بالوحدة. لذلك فإن حكومة فيصل في دمشق لم تبسط سيطرتها حتى انهيارها عام ١٩٢٠ إلا على الأجزاء الداخلية من سوريا. وكردة فعل على الاحتلال الفرنسي فإن العلماء والأعيان والوطنيين العرب أسسوا قواعد للمقاومة في الجبال والغابات والأحراش، صمد بعضها إلى ما بعد سقوط حكومة فيصل. لقد كانت هذه المجموعات تعمل بشكل منفصل وغير منسق، وإن كان ولاؤها الأسمى لدمشق[١٥]. تكونت مجموعة القسّام، التي اتخذت من قرية زنقوفة قاعدة لها، بشكل رئيسي من أتباعه وعدد من أقاربه[١٦]. وخلال عام طويل من الصراع ضد الفرنسيين، أخضع القسّام أتباعه لتدريب عسكري وديني في نفس الوقت، وزرع في نفوسهم معنىً عميقاً للجهاد.

لم تكن مجموعة القسّام مستمرة في المقاومة السورية في عامي ١٩٢٠ و١٩٢١ هذا على الرغم من أن مجموعة عمر البيطار (وهو من الأعيان السوريين من نفس المنطقة) استمرت في القتال حتى ربيع عام ١٩٢١، وذلك بعد انقضاء فترة من الوقت على مغادرة القسام[١٧]. وعلى أي حال فقد أظهرت تجربة مقاومة الفرنسيين ميلاً قوياً لدى هذا العالم الأزهري وتلميذ مدرسة الإصلاح الإسلامي لتبني الجهاد بمعناه المسلح عند الضرورة، كما علمه ذلك بعض القواعد المهمة أيضاً. ورغم أن المقاومة السورية كانت بطولية بشكل لا يمكن إنكاره، إلا أنها تشرذمت نتيجة المنافسة الداخلية داخل طبقة الأعيان. كما أن الخلافات الطائفية والإقليمية المتنامية كانت مدمرة بنفس المستوى، والأمر ذاته ينطبق على خلافات الأعيان والفلاحين. كما أن إدارة الخلافات السياسية كانت درساً يجب تذكره.

قبل سقوط الحكومة العربية، أجبر القسّام بفعل وضعه العسكري السيئ على التوجه إلى دمشق لطلب دعم فيصل، وقد قدّمه عز الدين التنوخي لفيصل، وفي اللقاء أكد الملك للقسّام على دعمه، ولكن سرعان ما طغت أنباء هزيمة ميسلون وتقدم الفرنسيين نحو دمشق على كل من الملك والعالِم المقاتل[١٨]. حينها قرر الشيخ عز الدين القسّام مغادرة سوريا المحتلة إلى فلسطين، بسبب صدور حكم بالإعدام بحقه من قبل محكمة فرنسية عسكرية. كانت الخطوة الأولى هي التوجه سراً إلى بيروت، حيث كان التنوخي جاهزاً للمخاطرة مرة أخرى، وتزويده بوثائق سفر[١٩]. وصل القسّام إلى حيفا عام ١٩٢٠ برفقة معاونه القديم وصديقه المخلص الشيخ أحمد الحنفي وعدد قليل من الأقارب والأتباع[٢٠].

ساعد قرب فلسطين والتوجه الليبرالي البريطاني في بداية الانتداب على جعلها ملجأً رئيسياً للقادة العرب السوريين. لذلك لم يكن من الصعب على القسّام ترتيب حياة جديدة بعد وصول أولاده وزوجته وبعد أن استأجر بيتاً في الحي القديم من حيفا. المميز في حالة القسّام هو التزامه التام تقريباً بفلسطين، فعلى العكس من العديد من الوطنيين السوريين في المنفى، لم يسجل عنه أية محاولات لتجديد انخراطه في السياسة السورية. لقد أصبحت فلسطين الآن وطنه وأصبح نظره مركزاً على شعبها ومستقبلها.

كانت معظم المؤسسات الإسلامية والأوقاف في حيفا تدار في بداية عقد العشرينيات من قبل الجمعية الإسلامية التي تأسست عام ١٩١٩. قدّم صديق محلي، يدعى الحاج

١٣ شليفر، مصدر سابق، ص. ١٥، يقتبس شليفر من المؤرخ الإسلامي زهير الشاويش قوله أن القسّام خدم في الجيش العثماني خلال الحرب، لكن لكونه عالماً، عين إماماً لحامية دمشق.

١٤ زين، نور الدين زين، الصراع من أجل استقلال العرب: الدبلوماسية الغربية وصعود وسقوط مملكة فيصل، بيروت: خياط، ١٩٦٠، ص. ٣٤ -٤٠؛ يوسف الحكيم، سوريا في العهد الفيصلي، بيروت، دار النهار، ١٩٨٢، ص.٤١.

١٥ الفصائل الأربعة الرئيسية كانت حتى ذلك الوقت بقيادة إبراهيم هنانو في منطقة حماة-حلب، صبحي بركات في أنطاكيا، صالح العلي في جبل العلويين، وعمر البيطار والقسّام في المنطقة السهلية في منطقة اللاذقية. لمزيد من التفاصيل راجع زين، مصدر سابق، الحكيم، مصدر سابق؛ وأدهم الجندي، تاريخ الثورة السورية في عهد الانتداب الفرنسي، دمشق: مطبعة الاتحاد،١٩٦٠.

١٦ الجندي، مصدر سابق، ص. ٥- ٢٤. شليفر، مصدر سابق، ص. ٦٦.

١٧ شليفر، مصدر سابق، ص. ٦٦؛ حمادة، مصدر سابق، ص. ٥٣. لمزيد من التفاصيل عن الأدوار التي لعبها القائدان الرئيسيان للمقاومة إبراهيم هنانو وصالح العلي راجع الجندي، مصدر سابق، ص. ٣١ وما يليها.

١٨ الجامعة الإسلامية، ٢٥ و٢٦ تشرين ثاني ١٩٣٣، حماده، مصدر سابق، ص. ٥٣، شليفر، مصدر سابق، ص. ٦.

١٩ خلف، مصدر سابق، ص.٣٢.

٢٠ أشار مصدر رسمي بريطاني إلى دخول القسّام لفلسطين سنة ١٩٢١، «تقرير عن الإرهاب، ١٩٣٦- ١٩٣٧، ص. ٧، أوراق تشارلز تيغارت، المحفوظة في كلية سانت أنطوني بجامعة أكسفورد، لندن. وثيقة أخرى مرسلة من أعيان الجمعية الإسلامية في حيفا للمندوب السامي البريطاني تظهر توقيع القسّام من بين آخرين، تأييداً لانتخاب الحاج أمين الحسيني كمفتٍ للقدس، وتحمل تاريخ ٥ نيسان ١٩٢١م (راجع نسخة عنها في حمودة، مصدر سابق، ص. ١٣٣). وهذا يشير إلى أن القسّام وصل إلى حيفا في وقت ما قبل نيسان ١٩٢١.

أمين نور الدين، الشيخ القسّام للجمعية، وعُيِّن القسّام مدرساً في مدرسة البرج الثانوية التابعة للجمعية[٢١]، وفي عام ١٩٢٤ عُيِّن الشيخ كامل القصاب، وهو منفي سوري أيضاً، مديراً للمدرسة. غادر القسّام المدرسة لعدم تمكنه من التماشي مع الإجراءات الإدارية المتشددة لزميله العالِم، واختير بعد ذلك مباشرة تقريباً من قبل الجمعية الإسلامية ليصبح إماماً لمسجد الاستقلال حديث الإنشاء في حيفا[٢٢]. لا شك أنه منذ وصوله إلى حيفا بدأ يؤثر على المدينة، لاسيما على الناس العاديين من سكان حيِّه. ولكن المسجد أعطاه الفرصة للوصول لجمهور عريض بشكل أكثر قرباً وانتظاماً[٢٣]. لقد وجد وسيلة التأثير من خلال وجوده كعالِم وخطيب ومحرِّض.

تحولت مدرسة البرج التي انتقل القسّام منها إلى مسجد الاستقلال، إلى قاعدة للقاء السلفيين وتجمعهم، خاصة بعد تعيين الشيخ كامل القصّاب فيها[٢٤]. كان هناك تفسير يمكن قبوله بلا منازع لقرار القسّام بالاستقالة من عمله في التعليم، وذلك بسبب انخراطه في الجماهير وكثرة مشاغله الاجتماعية التي جعلت من الصعب عليه الالتزام بجدول مدرسي محدَّد. رغم ذلك فقد جعلت الحياة الاجتماعية النشطة المتعددة الأبعاد التي عاشها الشيخ كامل القصّاب عرضة لمهاترات مدرسية ولنظريات المؤامرة، إلى الدرجة التي تم اتهامه فيها بالارتباط بالإنجليز[٢٥]. تماهى الشيخ القسّام مع مجموعة عربية إسلامية مكونة من الشيخ كامل القصاب، هاني أبو مصلح (سوريان)، رشيد الحاج إبراهيم، وهو قائد فلسطيني مميز في حيفا وأحد مؤسسي حزب الاستقلال عام ١٩٣٢. أخيراً ذكر مصدر قسامي الشيخ القصّاب كأحد القادة المبكِّرين لمنظمة القسّام السرية[٢٦]. وأكد مصدر آخر أن من تبقى طليقاً من مجموعة القسّام توجهوا للقصّاب طلباً للنصح[٢٧].

ولد محمد كامل (باشا) أحمد القصّاب (١٨٧٣–١٩٥٤)

٢١ مجاهد، مصدر سابق، ص. ١٣٩.

٢٢ خلف، مصدر سابق، ص. ٨٧. وعن تاريخ مسجد الاستقلال راجع حمودة، مصدر سابق، ص. ٤٤ لاشمان، مصدر سابق، ص. ٦٠. يشير لاشمان بشكل خاطئ إلى أن القسّام عين إماماً للمسجد عام ١٩٢٢.

٢٣ عبد الوهاب الكيالي، فلسطين تاريخ معاصر(بالإنجليزية)، لندن، كرووم هلم، ١٩٧٨، ص. ١٨٠.

٢٤ شليفر، مصدر سابق، ص.٦٧. لم يكن القسّام والقصّاب وحدهما يعملان في المدرسة، لكن أيضاً كان سوري آخر منفي وعروبي إسلامي وهو هاني أبو مصلح. راجع عجاج نويهض، رجال من فلسطين، بيروت: منشورات فلسطين المحتلة، ١٩٨١، ص. ١١٠.

٢٥ راجع على سبيل المثال، حمادة، مصدر سابق ، ص. ٩-٥٨. شليفر، مصدر سابق، ص. ٦٨، وقد قلل شليفر من دور القصّاب ومكانته كمعلم.

٢٦ نويهض، مصدر سابق، ص. ١١٠، شليفر، مصدر سابق،ص. ٨٨.

٢٧ مقابلة شخصية مع القسامي سليمان عبد القادر أبو حمام، آذار ١٩٩٠، أجريت في دمشق.

وتربى في دمشق حيث عرف في شبابه بكونه رجلاً قوياً (فتوة)[٢٨]، وبعد أن خبر تحولاً روحياً مفاجئاً، ترك حياة الشارع ودخل مسجد العقيبة، حيث قضى عدة سنوات يتابع دراسات عربية وإسلامية. وسافر إلى القاهرة عام ١٨٩٨ ليكمل دراسته العليا في العلوم الإسلامية في الأزهر، حيث كان محمد عبده مدرسه للقرآن والتفسير. لاحقاً أسس القصّاب المدرسة الكمالية في دمشق والتي تطوع للتدريس فيها عدد من العروبيين الإسلاميين بما فيهم عبد الوهاب الإنجليزي، عارف الشهاب، عبد الرحمن الشهبندر، أسعد الحكيم، وخير الدين الزركلي. نشأت المدرسة كمركز مهم لنشر الأفكار الإصلاحية العروبية قبل وبعد اندلاع الحرب العالمية الأولى. وأصبح القصّاب كعدد آخر من مدرسي المدرسة عضواً في الحركة العربية.

ابتعث القصّاب من قبل عروبيي دمشق إلى القاهرة في بداية الحرب العالمية الأولى لمناقشة رد العرب على الأوضاع الجديدة مع قادة حزب اللامركزية في القاهرة، حيث أسس علاقة قوية وطويلة الأمد مع الشيخ رشيد رضا، وشعر مثله لاحقاً بنفور من شريف مكة، الشريف حسين.

هكذا، ومثل العديد من الإصلاحين العرب، انتقل القصّاب تدريجياً إلى صف عبد العزيز آل سعود. في دمشق الفيصلية في عشرينيات القرن العشرين، وعندما تأرجح الملك بين مقاومة الفرنسيين أو استيعاب مطالبهم، تحول الشيخ كامل القصّاب إلى ثوري وقائد للجان الشعبية الوطنية في دمشق، والتي شكلت تحدياً جدياً لحكومة فيصل[٢٩]. من المرجح أنه خلال هذه الأوقات المضطربة والعاطفية، تعرف القسّام على زميله العالم الثائر. انتقل القصّاب، بعد سقوط دمشق والحكم عليه بالإعدام من قبل الفرنسيين، إلى نجد حيث عين مديراً للتعليم. لكنه سرعان ما أصيب بمرض مزمن اضطره إلى الانتقال من طقس الصحراء القاسي إلى حيفا، حيث سّطر هو والقسّام علاقة تعاون قوية.

ومثل العديد من العروبيين السوريين الذين استقروا في القاهرة، فقد أقام القصّاب بعض الصلات مع ضباط إنجليز، خاصةً أولئك الذين يعملون في المكتب العربي مثل هوجارث وأرلوند وكلايتون. ولقد كانت علاقته الأشهر مع الإنجليز من خلال مجموعة مذكرة السبعة عام ١٩١٨ التي قدم فيها القصّاب وستة آخرون من الوطنيين العرب، مطالب العرب بدولة مستقلة إلى مسئولي المكتب العربي وطالبوا بتوضيح السياسة البريطانية[٣٠]. بعد ١٥ عاماً تمت إضافة نبذة عن

٢٨ محمد مطيع الحافظ ونزار أباظا، تاريخ علماء دمشق في القرن الرابع عشر الهجري، دمشق، دار الفكر، ١٩٨٦، مج ٢، ص. ٦٥٧ - ٦٦٧.

٢٩ محب الدين الخطيب، حياته بقلمه، دمشق، جمعية التمدن الاسلامي ١٩٧٩، ص. ٤-٧٣؛
Khoury, Philip S., Urban Notables and Arab Nationalism, Cambridge, Cambridge University Press, 1983, p. 89-90.

٣٠ الوثائق المتعلقة العربية والرد على البريطانية نشرت رسميا مّن قبل الحكومة البريطانية تحت عنوان cmd٥٩٦٤

القصّاب في تقرير بريطاني سري تحت عنوان «من هو من العرب في فلسطين»[٣١]، ولقد كتب هذا التقرير باستخدام مصطلحات من الواضح أنها سلبية وغير محببة، وكان هذا في الفترة التي انخرط فيها القصّاب بعمق مع إسلاميين عرب آخرين في الحث على عقد مؤتمر قومي عربي.

لقد كان التقارب والتعاون بين القسّام والقصّاب في حيفا واضحاً عام ١٩٢٥ (بعد أن كان القسّام قد غادر مدرسة البرج)، حيث انخرطا بشكل واضح في نزاع إصلاحي–محافظ حول بعض الممارسات الشعبية لمظاهر الإسلام الأصلية. لقد أثيرت القضية من خلال فتوى أصدرها القسّام رداً على سؤال حول رفع الصوت بالتهليل والتكبير أثناء تشييع جنائز المسلمين إلى المقابر، وعكست فتوى القسّام وجهة نظر تقليدية للإصلاحيين مستمدة من الدين الرسمي تنكر هذا الفعل وتصفه بأنه غير إسلامي وتدعو إلى إيقافه، ومن المرجح أن تكون الفتوى قد حرضت الدوائر التقليدية على ردود فعل قوية، فقد هاجمت جريدة اليرموك الحيفاوية بقلم محررها الشيخ القسّام، وطالب معارضون آخرون للفتوى الشيخ محمد مراد، مفتي حيفا، بإقالة القسّام من موقعه في مسجد الاستقلال[٣٢]. بدا بشكل واضح أن جريدة اليرموك تنكر على القسّام حقه في الرد على هجومها، مدعية أنه كان يبحث عن تحسين مكانته من خلال زرع بذور الخلاف في المجتمع. بعد ذلك أرسل القسّام رده إلى الصحيفة الأخرى في حيفا، الكرمل[٣٣]، حيث تحدث فيه بقوة ضد الطقوس التقليدية القائمة على تجاهل الشريعة، وأشار إلى «الدوائر الانتهازية التي أصبح دوام تجاهل الشريعة مصدر رزق لها». ما من شك أن المسألة بحد ذاتها لا تستحق الجدل الذي أثارته، حتى بالنسبة لأجندة الإصلاحيين. رغم ذلك، فإن التوتر بين الطرفين (الإصلاحيين والمحافظين) أصبح يتزايد بشكل واضح في حيفا، بشكل يعكس التناقض المستمر بين دعوة الاصلاحيين لإسلام عملي إحيائي وعقلاني، وبين معارضيهم من المحافظين الجامدين ومن الصوفيين.

وبدل أن ينحسر هذا الجدل بعد أن نشر القسّام رده، فقد استمر وانتشر إلى مدن عربية أخرى، وكان الأمر الذي سرّع الإسهاب في الموضوع استفتاءً مشابهاً قدم إلى الشيخ كامل القصّاب وإلى الشيخ عبد الله الجزار قاضي عكا الشرعي. كان رد القصّاب متوافقاً مع رد القسّام بينما اتفق الجزار مع الاتجاه التقليدي. وقد قام السائل الذي تلقى الفتويين المتناقضتين بإرسالهما بالبريد إلى الشيخ علي سرور الزنكلوني والشيخ محمود خطاب، مؤسسي الجمعية العلمية الإصلاحية (الجمعية الشرعية)، وكلاهما أزهريان متميزان.

لم يوافق الشيخ الخطاب على وجهة نظر القصّاب والقسّام فحسب، بل نشر فتواهما في جريدة الشورى التابعة لمحمد علي الطاهر[٣٤]. لذلك دخل إلى النزاع عالم آخر هو الشيخ محمد صبحي الخزيران، مسئول محكمة عكا الشرعية ومساعد الشيخ الجزار. نشر الخزيران، وهو خريج الأزهر أيضاً، مقالة بعنوان «فصل الخطاب في الرد على الزنكلوني والقسّام والقصاب»، حيث اتهم معارضيه بالانحراف والتشويه. أصر القسّام والقصّاب على أن يكونا صاحبي الكلمة الأخيرة، فعملا سوية على تجهيز رد نهائي حاسم يوضح القضية ويظهر مصالح بعض المحافظين في دوام التدين الشعبي. لقد غطى كتابهما الذي نشر في دمشق مدىً واسعاً من المصادر والآراء لعلماء قدامى ومعاصرين[٣٥]. وزيادة على هذا فقد اصطف الإصلاحيون الاسلاميون–العرب من علماء ومثقفين في القاهرة ودمشق وبغداد، لدعم زميليهما في حيفا[٣٦].

ميادين النشاط

ساهمت هذه القضية بما أثارته من ضجة، عن قصد أو عن غير قصد في تأسيس وجود القسّام ضمن مجتمع نخبة حيفا، كشخص قوي وعنيد. كما أن موقعه كإمام مسجد أتاح لشعبيته مجالاً للتزايد وفتح له مجالات جديدة. لقد اخترق بدقة وصبر دوائر العمال والفلاحين السابقين الذين كانوا ينتقلون بشكل متزايد إلى حيفا التي كانت تتحول إلى ميناء رئيسي على الساحل الشرقي للمتوسط بعد وصول الإنجلير. لقد كانت طريقة القسّام في الوصول إلى هذا العدد الكبير من المهملين بسيطة وذكية. فإلى جانب الانخراط والتواصل الاجتماعي في مناسبات الميلاد والموت والزواج، فقد أسس مدرسة مسائية للأميين[٣٧]، وجاهد لجمع التبرعات للعاطلين عن العمل في سبيل مساعدتهم على حياة عملية جديدة، كما اختلط بالجانحين والمنبوذين اجتماعياً ودينياً في سبيل

(التصريحات التي صدرت عن حكومة جلالته عام ١٩١٨ حول الحالة المستقبلية لأجزاء معينة من الإمبراطورية العثمانية (لندن، hma، ١٩٣٩).

٣١ بريطانيا العظمى، مكتب السجلات العامة، أوراق المكتب الاستعماري، H.C إلى H.F، راواني، ٥ كانون أول ١٩٣١، CO 733/248/22

٣٢ جريدة اليرموك، ١٤ أيار ١٩٢٥.

٣٣ جريدة الكرمل، ٦ حزيران ١٩٢٥.

٣٤ حمودة، مصدر سابق، ص. ٦٤.

٣٥ محمد عز الدين القسّام ومحمد كامل القصاب، النقد والبيان في دفع أوهام خيزران، دمشق: مطبعة الترقي، ١٣٤٤ هـ/ ١٩٢٥ م.

٣٦ يشملون ضمن آخرين محمد بهجت الأثري، محمد بهجت البيطار، محمد جميل الشافي، ومحب الدين الخطيب، مجلة الزهراء ٧ رجب ١٣٤٤ هـ/٢١ كانون الأول ١٩٢٦. يدعي محسن محمد صالح، التيار الإسلامي في فلسطين وأثره في حركات الجهاد، الكويت، دار الفلاح، ١٩٨٨، ص. ٢٣٧، أن القسّام كان مدعوماً أيضاً من الحاج أمين الحسيني، وهو ادعاء لا يمكن تأييده.

٣٧ عمر أبو النصر وآخرون، جهاد فلسطين العربية، يافا، د. ن.، ١٩٣٦، ص. ٢٧٠.

إعادة تأهيلهم[٣٨].

مع منتصف عشرينيات القرن العشرين كانت جمعية العمال العرب قد أصبحت جسماً مهماً نتيجة للتوسيع المنتظم للميناء وتحويل حيفا إلى مدينة صناعية بشكل موازٍ. بدأ العمال العرب يعون قوتهم المتزايدة، وبدؤوا ينظمون أنفسهم بشكل يجعلهم متمايزين عن جمعية العمال اليهود، الهستدروت. واتخذ العمال العرب الخطوة الأولى عام ١٩٢٣، عندما قامت مجموعة من عمال السكك الحديدية بقيادة عبد الحميد حيمور، بتأسيس نادي عمال السكك الحديدية العرب[٣٩]. هذه المبادرات المبكرة من قبل العمال العرب قوبلت بمعارضة قوية من الهستدروت اليهودي، ومن قبل السلطات البريطانية، التي لم تقدم للفلسطينيين العرب أية حقوق دستورية تسمح لهم بإقامة منظمات تمثيل سياسي. وعلى خطى الأحزاب السياسية حصل عمال حيفا على تصريح في آذار ١٩٢٥ (بعد عام ونصف من الانتظار) لتأسيس جمعية العمال العربية الفلسطينية في حيفا، بناء على قانون الجمعيات العثماني. شجع القسّام ووجه ودعم هذه المجموعة الرائدة من عمال حيفا، التي غيرت جهودها مشهد الحركة العمالية الفلسطينية كليةً وللأبد، وفي صياغته للبيان الأول لجبهة العمال العربية، دعا القسّام العمال الفلسطينيين إلى الانضمام للجمعية والعمل بانسجام[٤٠]. لم تكن مساهمة القسّام في تأسيس الحركة العمالية الفلسطينية تجسيداً لتجاوب الإصلاحيين مع تحديات الوقت الراهن فحسب، لكنها زودته أيضاً بوسيلة هامة للتجنيد.

في أيار ١٩٢٨ شارك عز الدين القسّام الذي أصبح حينئذ شخصية مشهورة في حيفا، في تأسيس جمعية الشبان المسلمين في المدينة[٤١]. وبدأت فروع الجمعية تنتشر في المدن الفلسطينية المختلفة في نفس السنة بعد زيارات لرئيس الجمعية العربي عبد الحميد سعيد، وبعد عقد مؤتمر الجمعيات الإسلامية في يافا في ١٨ نيسان ١٩٢٨[٤٢]. كان معظم أعضاء الجمعية من الطبقة العاملة والوسطى، بينما كان قادتها في المعظم من الشخصيات الفلسطينية الوطنية، وكان لرشيد الحاج إبراهيم[٤٣]، وهو قائد فلسطيني من حيفا، دوراً كبيراً في تأسيس فرع الجمعية في المدينة وانتخاب القسّام كرئيس أول لها. في شباط ١٩٣١ جرت انتخابات جديدة جلبت رشيد الحاج إبراهيم إلى موقع الرئاسة، بينما حافظ القسّام على موقعه في اللجنة الإدارية. وبعد ثلاث سنوات تنازل رشيد طوعاً عن الرئاسة لصالح صديقه[٤٤] وهي خطوة بدا أن دافعها كان تحضيرات القسّام المتسارعة للثورة. وكما ستظهر الأحداث فإن فروع الجمعية في شمال فلسطين قد زودت القسّام بأرضية خصبة للتجنيد، فمنذ عام ١٩٣٣ كان القسّام قد بدأ بتوسيع نشاطاته لميدان ثالث وهو القرى الشمالية للريف الفلسطيني. وكما أن أحداث الحائط الغربي (البراق) عام ١٩٢٩ أشارت إلى نقطة تحول كبيرة في سياسة الانتداب، فقد عززت بشكل متساوٍ إصرار القسّام على موقف الصراع المسلح.

لقد سهلت وظيفة القسّام في المجلس الإسلامي الأعلى تنقلاته في القرى الجبلية[٤٥]،فزار عدداً كبيراً من قرى الشمال الفلسطيني ما بين عامي ١٩٢٩–١٩٣٥ وتحدث إلى الناس في المساجد والتقى بهم في أماكنأخرى ومناسبات مختلفة. لقد كان سلاحه القوي كما كان دائماً الخطاب الإسلامي المباشر الذي وظفه بفاعلية لتوضيح الحقوق والأعداء والواجب وأسباب تراجع وضياع فلسطين[٤٦]. استحضر القسّام

---

٣٨ مجلة الرابطة العربية، ٢٠ نيسان ١٩٣٨، شهادة حسن البايرفي فلسطين ، ٢٣ تشرين ثاني ١٩٣٥.

٣٩ مصدر مهم للتاريخ المبكر للحركة العمالية العربية الخفش، حسني صالح، مذكرات حول تاريخ الحركة العربية الفلسطينية، بيروت، مركز الأبحاث-منظمة التحرير الفلسطينية، ١٩٧٣، ص. ١-١٢. راجع أيضاً السكرتير العام لحكومة فلسطين، دراسة عن فلسطين، القدس، مطبعة الحكومة، ١٩٤٦، الجزء ٢ - ٩٥٥.

٤٠ الخفش، مصدر سابق، ص. ١٣، فايق حمدي طهبوب، الحركة العمالية والنقابية في فلسطين١٩٢٠-١٩٤٨، الكويت: دار كاظمة، ١٩٨٢، ص. ١٣٨.

٤١ خلف، مصدر سابق، ص. ٩٤.

٤٢ جريدة جريدة الجامعة العربية، ٢٤ و٢٦ نيسان ١٩٢٨.

٤٣ أسمه الكامل رشيد الحاج إبراهيم طاميش (١٨٨٩- ١٩٥٣)، رغم أنه أصبح يعرف بدون اسم عائلته. ولد في حيفا وتلقى تعليماً عثمانياً تقليدياً. عمل في إدارة سكة حديد الحجاز، وبعد الحرب انخرط في السياسة في دمشق في فترة الحكم القصيرة لحكومة فيصل العربية، أسس لعلاقة شخصية مع العروبين الفلسطينيين عزت دروزة، عوني عبد الهادي، صبحي الخضرا، رغم أنه لم يعرف عنه الانضمام الى أي من المنظمات السرية العربية خلال الحرب العالمية الأولى. عمل رشيد كرجل أعمال في حيفا في العشرينيات، وكان منخرطاً في الحياة السياسية الفلسطينية. في بداية الثلاثينيات عين مديراً لفرع البنك العربي في حيفا، مبتدئاً علاقة طويلة مع المؤسس الأسطوري للبنك العربي عبد الحميد شومان، وشريكه في تأسيس البنك ووالد زوجته الاستقلالي أحمد حلمي باشا. على عكس الاستقلاليين الآخرين، حافظ رشيد على علاقة قوية بالمفتي الحاج أمين الحسيني الذي عمل بشكل واضح على استبدال رشيد الحاج إبراهيم برئيس حزب الاستقلال عوني عبد الهادي. كانت علاقة رشيد القوية بالقسّام حقيقة معروفة بشكل واسع في حيفا لأن الإثنين اشتركا بتوجهات متشابهة نحو البريطانيين والصهاينة. حول حياة رشيد الحاج إبراهيم وعلاقته بالقسّام أنظر: المندوب السامي إلى داوني، ٥ كانون اول ١٩٣٣،CO ٢٢/٢٤٨/٧٣٣ ؛ نويهض، مصدر سابق، ص. ١٠٨-١١٨، حمودة، مصدر سابق، ص. ١٢٠.

٤٤ جريدة جريدة الجامعة العربية، ١٦ أيلول ١٩٢٨ و٢٨ شباط ١٩٣٠.

٤٥ حمودة، مصدر سابق، ص. ١- ٥٠، الملحق رقم ٦.

٤٦ أوراق تشارلز تيغارت، صندوق ١، ملف ٢/٣، الإرهاب ١٩٣٦-١٩٣٧، صفحة ٧؛ مقابلة شخصية مع القسامي سليمان عبد القادر أبو حمام، ٧ آذار ١٩٩٠، دمشق. في تحليل خطاب القسام، أشار نيلس جونسون بشكل صائب إلى أن «شعوبية القسّام الإسلامية خدمت كصوت فعال لمحرومي فلسطين»، راجع نيلس جونسون، الإسلام وسياسات المعنى في الوطنية

تجربة سورية في المقاومة ضد الفرنسيين قبل عقد من الزمن، في محاولة لإيجاد روابط مع داعمي الثورة الذين تم تجنيدهم ما بين القرويين. وإذا ما تم اعتماد خيار الثورة المسلحة، فإن القرى الشمالية هي التي ستكون قادرة على توفير المأوى ضد قوات الإمبراطورية البريطانية. لم تمر الأحداث في الجانب الآخر من العالم العربي مرور الكرام، فقد أسس القائد المسلم عبد الكريم الخطابي ثورة ذات صدىً واضح ضد الإسبان، انطلقت من الريف المغربي ما بين عامي ١٩٢٤ و١٩٢٧[٤٧]. ربما كانت قدرة الخطابي على تحرير أجزاء من الريف والنجاة من الهجمات الإسبانية لعدة سنوات نموذجاً حياً يمكن اقتفاؤه في فلسطين.

المشهد السياسي

ما بين بداية عام ١٩٣١ ونهاية عام ١٩٣٥، شهد المشهد السياسي الفلسطيني إحياءً سياسياً واضحاً، نتيجة الإحباط المتزايد من السياسات البريطانية من جهة، ونتيجة التنافس الواضح بين التيارات السياسية المختلفة، من جهة أخرى. كان فشل بريطانيا في التجاوب مع مطالب العرب من وتزايد الهجرة اليهودية إلى فلسطين يدفع فلسطين نحو جولة جديدة من الضعف. في نهاية العشرينيات تساوى عدد المهاجرين اليهود من فلسطين أو زاد عن عدد المهاجرين إليها بسبب الظروف الاقتصادية غير الملائمة والمصاعب المالية التي واجهت الوكالة اليهودية. لكن لاحقاً أعاد ارتخاء القبضة البريطانية وصعود الأحزاب النازية والفاشية في أوروبا تدفق اليهود. زاد عدد اليهود في فلسطين بأكثر من النصف ما بين عامي ١٩٣١ و١٩٣٥ (ارتفع من ١٧٥١٣٨ إلى ٣٥٥١٥٧) بينما كانت الأراضي الزراعية تنتقل بسرية من الفلسطينيين إلى اليهود[٤٨]. وكلما كان المشروع الصهيوني يبدو أكثر تهديداً كان الفلسطينيون يتحولون إلى توجه أكثر راديكالية.

في كانون ثاني ١٩٣٢، وبعد أسابيع قليلة فقط من انتهاء مؤتمر القدس الإسلامي، عقد اجتماع للشباب الفلسطيني في يافا، برئاسة عيسى البندك[٤٩]. تبنى المشاركون المئتان في الاجتماع ميثاقاً وطنياً للشعب الفلسطيني يدعو إلى الوحدة العربية ويظهر رفض أشكال الإمبريالية كافة. في نهاية اللقاء تم انتخاب لجنة تنفيذية للمؤتمر، وتم اتخاذ قرار لتأسيس فروع في مختلف أنحاء فلسطين[٥٠]، وإطلاق مؤتمر الشباب العربي كمنظمة سياسية[٥١]. تم تعزيز مؤتمر الشباب العربي كمؤتمر راديكالي في اجتماع عقد في نابلس في ١٨ أيلول ١٩٣١، بالتزامن مع تبني خطاب مواجهة من قبل حزب الاستقلال[٥٢]. مما أجبر اللجنة التنفيذية العربية الفلسطينية على تبني أجندة جديدة. عقدت اللجنة التنفيذية الفلسطينية اجتماعاً غير عادي في القدس في ٢٤ شباط ١٩٣٣ لمناقشة قضايا الهجرة اليهودية وبيع أراضي العرب لليهود، وأخذاً بعين الاعتبار الحقائق السياسية الجديدة فقد تمت دعوة ثلاثة أشخاص من غير أعضاء اللجنة التنفيذية، المفتي الحاج أمين الحسيني، إسماعيل الحسيني، والمصرفي الوطني الصاعد أحمد حلمي باشا[٥٣]. انتهى الاجتماع بقرار يتضمن الطلب من المندوب السامي إصدار تشريع يمنع بيع أراضي العرب لليهود ويغلق الأبواب أمام الهجرة اليهودية. بعد ساعتين من المحادثات مابين وفد اللجنة التنفيذية والمندوب السامي، رفض الأخير المطالب الفلسطينية، ونتيجة لذلك دعا القادة الفلسطينيون إلى اجتماع وطني عام يعقد في القدس في ٢٦ آذار لمناقشة تبني سياسة غير تعاونية مع الحكومة، وقد حضر الاجتماع ما بين خمسمائة إلى ستمائة مشارك من مختلف المواقع والخلفيات والتوجهات[٥٤]. ولكن وبدل إصدار برنامج مفصل وفاعل حول عدم التعاون مع حكومة الانتداب، تحول الاجتماع إلى مناورات سياسية بين المفتي (المعسكر الحسيني) ومعارضيه (الكتلة النشاشيبية)، التي طالبت باستقالة المفتي من رئاسة المجلس الإسلامي الأعلى. وكان الاستقلاليون الحزب الوحيد الذي قدم عرضاً متماسكاً نسبياً حول عدم التعاون مع حكومة الانتداب[٥٥].

الفلسطينية، (بالإنجليزية)، لندن: كيفان باول، ١٩٢٨، ٣٢، ٣٨-٤٤.

٤٧ تيد سويدنبرج، «دور الفلاحين الفلسطينيين في الثورة الكبرى ١٩٣٦-١٩٣٩»، في ادموند بيرك الثالث وايرا م. لابيدوس (محرران)، الإسلام، السياسات والحركات الاجتماعية، (بالإنجليزية)، لندن: ب تاورس، ١٩٨٨، ص. ١٨٩.

٤٨ نورمان بنتويش وهيلين بنيتويش، ذكريات الانتداب ١٩١٨- ١٩٤٨، (بالإنجليزية)، لندن: طبعة هوغارث، ١٩٦٥، ص. ١٥٣-١٥٤، وينستوك، أثر الاستعمار الصهيوني على المجتمع الصهيوني قبل ١٩٤٨، Journal of Palestine Studies (مجلة الدراسات الفلسطينية)، ٢:٢ (١٩٧٣)، ص. ٥٥، راجع أيضاً المطالب التي تعنى بهذه المسألة التي أقرت نيابة عن الفلسطينيين من قبل شكيب أرسلان وإحسان الجابري وأرسلت إلى لجنة الانتداب الدائمة في عصبة الأمم في رسالة المندوب السامي s.of.s.forcolmi، ٢٥ كانون اول ، CO ١٣/٢٧٠/٧٣٣. ومجموعة من المسلمين الهنود إلى الحكومة البريطانية فيT.L ، هودجكين إلى باكينون،٢٠ آب، ١٩٣٤، CO ٥/٢٥١/٧٣.

٤٩ جريدة الجامعة العربية، ٦ و٨ كانون ثاني ١٩٣٢.

٥٠ كان راسم الخالدي هو الرئيس الأول للمؤتمر. رغم ذلك فقد قادت الظروف الداخلية الى استبداله بعد أقل من عام من تأسيس المؤتمر بيعقوب الغصين، وهو ابن عائلة مالكة للأراضي في منطقة الرملة، راجع نويهض، مصدر سابق، ص. ١٧٥-١٧٦، بيان نويهض الحوت، القيادات والمؤسسات السياسية في فلسطين ١٩١٧ - ١٩٤٨، بيروت: مؤسسة الدراسات الفلسطينية، ١٩٨٦, ص. ٢٦٠.

٥١ CID، ملخص المخابرات اليومي، ٢١ أيلول CO،١٩٣١ ٢٠٤/٧٣٣ .

٥٢ حول توجه حزب الاستقلال الأكثر ثورية نحو القضية الوطنية راجع على سبيل المثال، مجلة العرب، تشرين أول ١٧ و٢٨ كانون الأول ١٩٣٢(مجلة العرب كانت الناطقة بلسان حزب الاستقلال).

٥٣ جريدة الجامعة العربية، ٢٦ شباط ١٩٣٣، CID؛ ملخص المخابرات اليومي ٢٥ شباط ١٩٣، CO ٢٣٤/٧٣٣

٥٤ تقرير دقيق نوعاً ما عن الاجتماع في مراسلات واكهوب-كونغيلي ليستر، مغلف ٣، ١ نيسان ١٩٣٣، CO ٢٣٤/٧٣٣.

٥٥ مجلة العرب، ١ نيسان ١٩٣٣.

ومن الغريب أن توجههم الثوري لقي الدعم من قبل المعارضة التي أرادت تقويض مكانة المفتي وتشويه صورته، بينما دافع المفتي عن موقعه في المجلس الإسلامي الأعلى كممثل منتخب للفلسطينيين ومصالحهم أكثر من كونه موظفاً. لم تكن سياسة عدم التعاون واضحة بقرار يقضي بمقاطعة الاستقبالات والاحتفالات الحكومية. لقد كان الاجتماع فاشلاً وأسهم لاحقاً بتقويض ما تبقى من سمعة اللجنة التنفيذية.

قاد الإحباط المتزايد، وعدم قدرة اللجنة التنفيذية الوطنية على المحافظة على موقعها الرائد، الفلسطينيين إلى الخروج في مسيرات إلى الشوارع حيث قامت سلسلة من المظاهرات العارمة،انطلقت الأولى منها في القدس في ١٣تشرين الأول١٩٣٣. وبعد تفريقهم بالقوة تجمع قادة المظاهرة في بيت موسى كاظم الحسيني وقرروا الدعوة إلى احتجاج آخر مشابه بعد أسبوعين يعقد في يافا. واهتمت إدارة مؤتمر الشباب والجمعية الإسلامية–المسيحية في يافا بالتحضيرات الضرورية[٥٦]. في يوم الجمعة ٢٧ تشرين الأول خرج أكثر من سبعة آلاف متظاهر إلى شوارع يافا، وكان من بينهم وفد نسائي قوي من القدس ووفود من سوريا وشرق الأردن. تقدم الحشد مجموعة من القادة الفلسطينيين كان بينهم القائد موسى كاظم الحسيني[٥٧]. وخلال المواجهات المتتالية بين الشرطة والمتظاهرين قتل (١٢) متظاهرا وجرح (٧٨) آخرين، بما فيهم الحسيني المسن. وأحاط بالبلاد جو مشحون بالغضب لأنه كان يفترض من البوليس احتلال مدن نابلس، حيفا، صفد، طولكرم، الناصرة، عكا، القدس لمنع تكرار المشاهد الدامية في يافا[٥٨]. الأمر الأهم الذي ميز أحداث تشرين أول ١٩٣٣ هو توجهها، فعلى العكس من أحداث عام ١٩٢٩ التي استهدفت عناصر يهودية فإنّ هذا الاحتجاج كان ضد الإنجليز بشكل مقصود. والمظهر الآخر المهم التجاوب الذي أحدثه التحرك الفلسطيني في الأقطار العربية المجاورة، خاصة سوريا والعراق ومصر، بالتزامن مع انتقال القضية الفلسطينية بالتدريج إلى مركز اجتماعات الوطنيين العرب[٥٩].

توفي موسى كاظم الحسيني بهدوء في بيته بالقدس بعد خمسة أشهر من إصابته بجروح في الرأس في مظاهرة يافا، وذلك في ٢٧ آذار ١٩٣٤، وقد تمّ وسط الحزن الشامل إحضار جثمانه إلى الحرم القدسي الشريف حيث دفن في إحدى الغرف المجاورة لباب المجلس الأعلى، إلى جانب قبري الشريف حسين بن علي، شريف مكة، والزعيم الهندي محمد علي[٦٠]. لقد أشار موت الحسيني إلى موت اللجنة التنفيذية العربية الفلسطينية وبدء مرحلة جديدة للحركة الوطنية الفلسطينية.

لم ينهِ ظهور أمين الحسيني وارتفاع مكانته الوطنية، بعد أحداث القدس عام ١٩٢٩ والمؤتمر الإسلامي عام ١٩٣١، مشكلة القيادة في فلسطين أو مسألة الإنقسام بين رموزها. وبينما واصل النشاشيبيون تقديم صورة عصرية وموالية للإنجليز، فإن المفتي ومؤيديه كانوا منخرطين في جهد منظم للوصول إلى مركز متاح للقوة في البلاد والتحكم به. وسّع المفتي تأثيره، مستخدماً المصادر الضخمة للمجلس الإسلامي الأعلى، من الدوائر الدينية إلى الدوائر غير الدينية، مجتذباً إلى جانبه عدداً واسعاً من المؤيدين، بما فيهم بعض المسيحيين. أتيحت للحسينيين عام ١٩٣٤فرصة ذهبية لتعزيز قوتهم،فقد وافق المندوب السامي أخيراً على إصلاح أوضاع البلديات في فلسطين، بعد تعرضه لضغوط عديدة. ورغم أن القانون الذي صدر حديثاً أعطى المندوب السامي سلطات جديدة للإشراف على أموال البلديات، وأعطاه الحق بإقالة رؤساء البلديات[٦١]، فإنه أيضاً أعطى الفرصة لانتخابات بلدية جديدة. وكانت آخر انتخابات بلدية عقدت عام ١٩٢٧، حيث حصلت المعارضة على رئاسة بلديات عدد من المدن الهامة، بما فيها القدس، التي رئس راغب النشاشيبي بلديتها منذ عام ١٩٢٠ دون انقطاع.

لذلك ستشير الانتخابات البلدية الجديدة إلى مرحلة جديدة من الصراع، ستصبح فيه القدس بالتأكيد النقطة المركزية. وتحفيزاً للانتخابات تم تشكيل تحالف مابين آل الحسيني وآل الخالدي، وهي العائلة الثانية من حيث التأثير في القدس، وكذلك إحسان الجابري، العروبي السوري، وهو مساعد شكيب أرسلان ورفيقه المقرب في جنيف[٦٢]. وبالتالي تم ترشيح الدكتور حسين الخالدي، وهو طبيب مهم، كمرشح عن الجانب الوطني، ضد رئيس البلدية الحالي راغب النشاشيبي. أتاح تحالف آل الحسيني وآل الخالدي والمزاج العام في البلاد الفرصة لهزيمة النشاشيبي واستبدال حسين الخالدي به[٦٣].كان هذا بالطبع ضربة جذرية للمعارضة، ودليلاً آخر على تزايد التشدد في السياسة الفلسطينية.[٦٤]

---

٥٦ جريدة الجامعة العربية،١٧ تشرين أول ١٩٣٣.

٥٧ واكهوب إلى كونليغي ليستر، ٢ تشرين ثاني ١٩٣٣. CO 733/239.

٥٨ المصدر السابق نفسه. كيث روتش الى السكرتير العام، ١١/٧، ١١/٤، ١١/٦، CO ٢٣٩/٧٣٣. كانت الحصيلة النهائية لاضطرابات تشرين أول حسب تقرير لجنة التحقيق الرسمية مقتل رجل الشرطة و٢٦ مواطناً عربياً، وجرح ٥٦ رجل شرطة و١٨٧ مواطناً عربياً.
CH ctos.ofs. for Colonies CO733/239, 4 January 1934.

٥٩ حول ردة الفعل العربية راجع جريدةالأهرام ٣ و١٧ و١٠/٢٨ و١/١٩٣٣/١١. جريدة كوكب الشرق ١١، ٢٢، ٢٨، و٣١/ ١٠ و١٩٣٣/١١/٢. ولرؤية من دمشق راجع: من القنصل مكارث إلى السير جون سيمون، ١٩٣٣/١١/١، CO ٢٣/٧٣٣.

٦٠ جريدة فلسطين، ١٩٣٤/٣/٢٩.

٦١ يوفاد ب. أوهان، الصراع الداخلي في الحركة الفلسطينية، (بالإنجليزية)، تل أبيب: مركز شلواح للدراسات الشرق أوسطية والأفريقية، ١٩٨١، ١٢٦-١٢٧.

٦٢ حسين الخالدي، مذكرات (غير منشورة)، ص ١٨٦-١٨٧. (مقتبس في الحوت، مصدر سابق، ص. ٣٠٠).

٦٣ جريدة الجامعة العربية،١٦، ١٨و ١٩٣٥/١/٢٠.

٦٤ ماناويل حساسيان، الصراع السياسي داخل الحركة الوطنية الفلسطينية، القدس: دار البيادر، ١٩٨٧، ص. ١٦٣.

اتخذ المفتي خطوة جريئة أخرى متسلحاً بهذا الانتصار، وفي مسعىً لتعزيز موقعه والأجندة الوطنية، فقد قام بالدعوة إلى اجتماع إسلامي فلسطيني في القدس. عقد الاجتماع في ١٩٣٥/١/٢٥ وحضره عدد كبير من المفتين والقضاة والمدرسين الشرعيين والعلماء من مراتب مختلفة[٦٥]. دعماً لعدد من القرارات التي تم تبنيها من قبل المؤتمر الإسلامي العام عام ١٩٣١، وانتهى هذا الاجتماع بإصدار فتوى، تم التوقيع عليها من قبل جميع المشاركين، تحرِّم بيع الأراضي لليهود، وتصف باعة الأراضي والسماسرة لليهود بالخارجين عن الإسلام[٦٦]. ولإظهار جدية الفتوى، فقد قرر المشاركون في الاجتماع تأسيس جمعية الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، بحيث يكون مقرها في القدس، ويرأسها الحاج أمين الحسيني وتكون مهمتها الأساسية تحديد السماسرة وباعة الأراضي ونشر أسمائهم وهوياتهم. لاحقاً بادر المفتي إلى إصدار فتوى مشابهة من العالمين المسلمين الكبيرين رشيد رضا ومحمد حسين آلكاشف الغطاء(والعالم الهندي محمد سليمان القادري الجشتي ومن الكاهن المسيحي الأرثوذوكسي العربي المعروف إلياس قنواتي[٦٧].

في السياق السياسي الفلسطيني في الثلاثينيات كان التشدد والانقسام الداخلي وجهين لحقيقة واحدة. فوفاة موسى كاظم الحسيني، والظروف السيئة التي أعقبت الانتخابات البلدية، والصعود الذي بدا غير قابل للتوقف للحاج أمين الحسيني، كل ذلك دفع المعارضين النشاشيبيين لإنشاء منظمتهم السياسية الخاصة، فقد أعلن عن إنشاء حزب الدفاع الوطني برئاسة راغب النشاشيبي في تجمع كبير لأنصاره في يافا في ٢ كانون أول[٦٨] ١٩٣٤، وكان من بين أعضائه البارزين الشيخ أسعد الشقيري، المحامي حسن صدقي الدجاني (من القدس)، عبد الرحمن التاجي الفاروقي (من أعضاء المجلس الإسلامي الأعلى)، عاصم السعيد (رئيس بلدية يافا) عيسى العيسى (رئيس تحرير جريدة فلسطين).

بعد عدة شهور، وتحديداً في ١٧ آذار ١٩٣٥، أعلن تجمع مكون من ١٥٠٠ شخص من القدس ميلاد الحزب العربي الفلسطيني[٦٩]، وتم انتخاب جمال الحسيني، ابن عم المفتي، رئيساً للحزب الجديد. ورغم أن المفتي تجنب حضور الاجتماعات الرسمية للحزب، فقد كان معروفاً على نطاق واسع أنه الزعيم الروحي للحزب. نجح الحزب العربي في نشر فروعه في كافة أنحاء البلاد اعتماداً على شعبية المفتي وشبكة مناصريه المتسعة، حيث أصبح بعد فترة قصيرة من الوقت «حزب الأغلبية في فلسطين»[٧٠]، كما نجح حزب الحسينيين هذا، كما أصبح معروفاً بين الجماهير، باجتذاب شخصيتين مسيحيتين هامتين إلى قيادته، هما ألفرد روك، وهو تاجر من يافا، وإميل الغوري، وهو محام وصحفي من القدس[٧١]. وسيظل الأخير حتى وفاة المفتي عام ١٩٧٤ واحداً من أخص رجاله. أطلق الحزب العربي الفلسطيني منظمة الفتوّة وهي منظمة شبابية تهدف إلى اجتذاب الشباب العربي، وربما كانت متأثرة بالنموذج الفاشستي الأوروبي السائد في الثلاثينيات. وعلى كل فقد فشلت «الفتوة» في الانطلاق كمنظمة، وتم إحياؤها فقط بعد عام ١٩٤٥[٧٢]. ركز الحزب العربي الفلسطيني في برنامجه على هدف ربط فلسطين بغيرها من الأقطار العربية في إطار سياسي عربي ودعا إلى استقلال فلسطين[٧٣].

خلال الشهرين التاليين تم إنشاء حزبين آخرين أصغر حجماً، أولهما حزب الإصلاح العربي الفلسطيني الذي أعلن عنه في ٢٣ حزيران ١٩٣٥ تحت قيادة حسين الخالدي، الرئيس المنتخب حديثاً لبلدية القدس[٧٤]. وكان المقصود من هذا الحزب خلق قاعدة قوة أوسع لآل الخالدي، وكان بالإمكان تحقيق هذا الهدف بشكل جزئي فقط. أما الحزب الرابع الذي تم إنشاؤه في أقل من سنة فهو «حزب الكتلة الوطنية» بزعامة عبد اللطيف صلاح[٧٥]. وقد تأسس هذا الحزب في نابلس في ٥ تشرين الأول ١٩٣٥. وعكس حزب الكتلة الوطنية إصرار رموز المدينة على الاستقلال عن تأثير القدس، ولكن رغم أن الحزب نجح في جذب عدد قليل من رموز المناطق الأخرى في فلسطين، إلاّ أنّه فشل في التحول إلى منظمة على الصعيد الوطني أو إلى تشكيل تحدٍ حقيقي للحزب العربي الفلسطيني التابع لآل الحسيني.

من جهة أخرى، ورغم أن حزب الاستقلال لم يكن له نشاط عام بعد أيلول ١٩٣٣، ورغم أن الحزب لم يستعد نشاطه بعد ذلك، فإنه لم يعتبر ميتاً من قبل قادته، ولم ينتقل

---

٦٥ جريدة الجامعة العربية،١٩٣٥/١/٢٧، واكهوب الى كوهن ليفي ليستر،١٩٣٥/٣/٤، CO ٧٣٣/٢٧٨ .

٦٦ الفتوى الخطيرة بشأن بيع الأراضي للصهيانة، القدس: دار الأيتام الإسلامية، ١٩٣٥. (هناك نسخة متوفرة في ملف المجلس الإسلامي الأعلى، جمعية الدراسات العربية، القدس).

٦٧ جريدة الجامعة العربية، ١ و١٩٣٥/٢/١٢.

٦٨ جريدة فلسطين ١١/٦ و١٩٣٤/١٢/٤.

٦٩ جريدة الجامعة العربية، ٢٦و ١٩٣٥/٣/٢٩، أوراق ألان كننغهام، مركز سانت أنطوني للشرق الأوسط، جامعة أكسفورد، صندوق ٤، ملف ٣، DS ١٢٦٤، من ٩.

٧٠ أوراق كننغهام، ١٥٢.

٧١ للاطلاع على قائمة بقادتها راجع جريدة الجامعة العربية، ١٩٣٥/٥/٩؛ إميل الغوري، فلسطين عبر ستين عاماً، بيروت: دار النهار، ١٩٧٢، الجزء الأول، ١٩٧-١٩٨.

٧٢ أوراق كننغهام، صندوق ٤، ملف ٣، DS ١٢٦٤ ص ١١.

٧٣ الحزب العربي الفلسطيني: القانون الأساسي، القانون الداخلي، القدس، ١٩٣٥، (أرشيف جمعية الدراسات العربية، القدس، ملف ١٤٧).

٧٤ جريدة فلسطين، ٢٨ حزيران ١٩٣٥. حيث أن تأسيس هذا الحزب جاء بعد التحالف بين الخالديين والحسينيين، فإن حزب الإصلاح العربي الفلسطيني حافظ على صلات جيدة مع الحزب العربي الفلسطيني، راجع محمد عزت دروزة، حول الحركة العربية الحديثة، صيدا، المكتبة العصرية، ١٩٤٩-١٩٥١، جزء ١، ١١٨.

٧٥ فلسطين، ٦،١٠ تشرين أول ١٩٣٥.

أي منهم إلى الأحزاب الأخرى حديثة الإنشاء. بالتدريج، استطاع العديد من الاستقلاليين إصلاح روابطهم مع المفتي، لكنهم استمروا أيضا ككتلة للحفاظ على هويتهم الرمزية كاستقلاليين.

لذلك، ومع نهاية عام ١٩٣٥، كان المشهد السياسي الفلسطيني منقسماً ما بين خمس منظمات سياسية إلى جانب تنفيذية مؤتمر الشباب. ورغم أن الحزب العربي الفلسطيني كان حتى هذا الوقت الحزب الأكثر شعبية فإن قوته لا يمكن أن تخفي الطبقية المجزأة للنخبة السياسية الفلسطينية. وقد تولدت فكرة الصراع المسلح كرد على التشرد والتجزئة. انطلقت مجموعة فلسطينية وطنية بقيادة هذا العالم كنتيجة للوقوع ما بين فكي قلة تجاوب القوى السياسية المسيطرة، وازدواجية بريطانيا تجاه مظالمهم[٧٦].

الخيار القسامي

بسبب المكانة الأسطورية التي احتلها القسّام في التاريخ الفلسطيني الحديث فإنه ودوافعه الحقيقية للثورة طالما كانت موضعاً للخلاف. لقد ناقش حمودة[٧٧] بشكل مكثف قضية صلات القسّام مع الأحزاب السياسية الفلسطينية الأخرى. ورغم أن حمودة استنتج بشكل صحيح أن القسّام عمل باستقلالية عن الأقطاب السياسية لعصره فإن هذه القضية حساسة إلى الدرجة التي تجعلها بحاجة إلى مزيد من التدقيق.

صعد هذا الجدل حول روابط القسّام السياسية مباشرة بعد وفاته،فقد كان زميلاً مقرباً من الاستقلالي البارز رشيد الحاج ابراهيم الذي أسرّ إليه القسّام بقراره ترك حيفا ومغادرتها إلى الجبال الشمالية في بداية تشرين أول ١٩٣٥ للتحضير لإطلاق الثورة المسلحة[٧٨].جعلت هذه الصلة الاستقلاليين حمدي الحسيني وهاشم السبع يربطان في تأبينهما للقسام بينه وبين فرع حزب الاستقلال في حيفا[٧٩]. أما عجاج نويهض، وهو استقلالي آخر، وشاهد أقل حزبية فقد شهد باستقلال القسّام عن حزب الاستقلال. كان المفتاح لهذا التشابك بالطبع رشيد الحاج إبراهيم، الذي كان نويهض مقرباً منه بشكل خاص ومطلعاً على أوراقه الخاصة[٨٠].

اعتمدت شهادة نويهض على رشيد الحاج إبراهيم ومعلوماته الأولية، لذلك يمكن اعتبارها قطعية في هذا السياق. الدائرة الوطنية الأخرى والأكثر أهمية في ذلك الوقت كانت دائرة المفتي الحاج أمين الحسيني.

ويبدو أن عز الدين القسّام قد عرف أمين الحسيني قبل وصوله إلى فلسطين ربما من الأيام الأخيرة لحكومة فيصل في دمشق. وربما كان هذا السبب لتوقيع القسّام على الطلب الذي قدّم من حيفا دعماً لانتخاب الحاج أمين كمفتٍ للقدس عام ١٩٢١[٨١] . ويبدو أن العلاقة بين الرجلين لم تتطور أبعد أو أعمق من ذلك لاحقاً. وقد كان لهما لقاءات محدودة خلال عدد من المناسبات الاحتفالية[٨٢]، خاصة أن القسّام كان موظفاً لدى المجلس الإسلامي الأعلى. ولم يظهر اسم القسّام على السطح في دوائر مساندي المفتي إلا بعد مقتله. ولم يحضر المفتي أو غيره من قيادات الأحزاب الفلسطينية جنازة القسام[٨٣]. ولم يدّعِ المفتي بنفسه صله بالقسّام أو حركته[٨٤]. وعلى العكس، فقد عمل كل من إميل الغوري، وهو زميل مقرب للمفتي، ودائرة المخابرات الصهيونية، ولأسباب مختلفة، على بناء مستويات متباينة من التعاون بين الطرفين (القسّام والحسيني). كتبت التقارير الصهيونية حول هذا الموضوع بعد معركة يعبد ومقتل القسام[٨٥]، لأن الصهاينة اعتقدوا أن

٧٦ محمد عزت دروزة، القضية الفلسطينية في مختلف مراحلها (صيدون: المكتبة العصرية، ١٩٥٩) الجزء الأول، ١٠٦.

٧٧ حمودة، الوعي والثورة، ٢٧-١١٩؛ القيادات والمؤسسات ، ٧-٣٢٦.

٧٨ نويهض، مصدر سابق، ص. ١١٤.

٧٩ جريدة الجامعة الإسلامية، ١٩٣٥/١١/٢٢، تم التعبير عن وجهة نظر متشابهة من قبل المؤرخ الاستقلالي عزت دروزة، تاريخ الحركة العربية، جزء ١، المكتبة العصرية، صيدا، ١٩٤٩-١٩٥١، ص. ١٢٠.

٨٠ sإبراهيم الشيخ خليل، (رسالة من مجاهد قديم: ذكريات عن القسام. مجلة شؤون فلسطينية، العدد ٧ (١٩٧٢)، ص. ٢٦٠، نويهض، مصدر سابق ، ص. ١٠٨-١٠٩ و١١٨.

٨١ يهوشع بوراث، الحركة العربية الفلسطينية، ١٩٢٩-١٩٣٩، (بالإنجليزية)، لندن: فرانك كاس، ١٩٧٧، ص. ١٣٣.

٨٢ خلف، (تجربة الشيخ)، ٩٨.

٨٣ أكرم زعيتر في الجامعة الإسلامية، ١٩٣٥/١١/٢٢.

٨٤ محمد أمين الحسيني، حقائق عن قضية فلسطين (القاهرة، مكتب الهيئة العربية العليا، ١٩٥٤) لاشمان ، (الثورة العربية والإرهاب، ٧٦، كتب لاشمان إنه (خلال العشرينيات فإن كلاً من القسّام والمفتي كانا على صلة جيدة، وربما بني تفاهمهما على تماثل الرؤى والاحترام المتبادل. استنتج لاشمان أن العلاقات الكبيرة بين الاثنين خلال العشرينيات قادت إلى تعيين القسّام كإمام مسجد في حيفا ومأذون شرعي. لا يمكن أخذ وجهة نظر لاشمان في هذا المنحى، فتعيين القسّام كإمام لمسجد الاستقلال قررته الجمعية الإسلامية في صيف عام ١٩٢٥ ، قبل أن يصبح المسجد تابعاً للمجلس الإسلامي الأعلى. كما يبدو أيضاً أن القسّام حصل على منصب مأذون شرعي بعد تقدمه لاختبار عادي دون تدخل المفتي أو أي طرف آخر (ملف، تجربة الشيخ)، ٩٨، حمودة، الوعي والثورة، ٤٤،٤٩-٥٠، ١٢٦).

٨٥ لاشمان، مصدر سابق، ص. ٧٦، ويشير الكاتب لمصدر مخابرات صهيونية، (تقرير أ. ه. كوهين ١٩٣٢/٥/١١، الأرشيف الصهيوني المركزي، القدس، ٢٥S/٣٥٥٧، وسيشار للأرشيف الصهيوني صاعداً بِ أ. ص.). يذكر أن المفتي «شجع القسّام وأمدَّ حركته بالدعم المالي». الحقيقة أن تقرير كوهين المذكور في عام ١٩٣٢ لم يذكر بشكل خاص القسّام أو مجموعته. أما التقارير المخابراتية الصهيونية الأخرى التي اقتبسها لاشمان من الأرشيف الصهيوني (زفي شابيرا إلى س. فنكلستين، ١٩٣٦/١٠/٢٨، ٢٥S/١٠٤٩، وأ. كوهين، أحداث تشرين الثاني، ٤٢٢٤/١٩٣٦S٢٥/١١/٢٠) فقد كتبت بعد معركة يعبد بوقت طويل.

ربط المفتي بأعمال عنف ضد البريطانيين سيقوض علاقاته بالحكومة، ولم يكن غريباً على الوكالة الصهيونية إرسال تقارير مخابراتية مختارة لإدارة الانتداب. ففي شهر كانون ثاني ١٩٣٥ أشارت التقارير الصهيونية إلى رسالة أرسلت من القدس إلى جمعية حيفا الإسلامية، التي كان القسّام عضواً فيها[٨٦]. لكن الرسالة تتعلق بالتحضيرات لعصيان مدني، لا حملة مسلحة منظمة. وقد كان العصيان المدني قضية عامة تناقش من قبل معظم دوائر الحركة الوطنية الفلسطينية.

نشرت قصة الغوري المبالغ فيها حول التنسيق ما بين القسّام والمفتي لأول مرة عام ١٩٦١ عندما كان الغوري مسئولاً عن نشرة الهيئة العربية العليا في بيروت[٨٧]. كان أنصار المفتي وقتها في حالة دفاع ضد ما رأوه حملة نقدية لتدمير صورة المفتي ومسح تاريخه، فقد نشر صبحي ياسين، وهو ناصري فلسطيني، ادعى أيضاً خلفية قسّامية، دراسة حول الثورة الفلسطينية ١٩٣٦–١٩٣٩، كان فيها معادياً للمفتي بشكل خاص[٨٨].سعى كتاب ياسين لتصوير المفتي كمعارض مبكر لحركة القسّام[٨٩]. في الحقيقة فإن الراجح أن القسّام والحاج أمين الحسيني لم يلتقيا إلا بضعة مرات ما بين عامي ١٩٢١ و١٩٣٥، وأن المفتي لم يعارض حركة القسّام،وأنّه في نفس الوقت لم يقم بأية خطوة مهمة تجاه الكفاح المسلح حتى اندلاع ثورة ١٩٣٦– ١٩٣٩. وعلى العكس من ادعاءات الغوري، فإن القسّام لم يكن عضواً في حزب المفتي (الحزب العربي الفلسطيني)[٩٠]. لم يكن تعريف كل من الرجلين لمن هو العدو وما هي الطريقة الأمثل للصراع

٨٦ تقارير من حيفا، ١٩٣٥/١/١٧، أ. ص.25S/٣٥٥٣).

٨٧ مجلة فلسطين هي نشرة لمكتب الهيئة العربية العليا في بيروت والتي تختلف عن تلك الصحيفة التي كانت تصدر في يافا وتحمل نفس الاسم في فترة ما قبل عام ١٩٤٨، عدد ٣، ١٩٦١/٣/١٥، عدد ٤، ١٩٦٩/١/١، وعدد ٩٥، ١٩٦٩/٢/١؛ الغوري، مصدر سابق، جزء ١، ٢٤٨-٢٥٣.

٨٨ صبحي ياسين، الثورة العربية الكبرى في فلسطين، ١٩٣٦-١٩٣٩، القاهرة: دار الهنا للطباعة، ١٩٥٩، أنكر سليمان أبو حمام خلال مقابلة شخصية أجريتها معه في دمشق بتاريخ ١٩٩٠/٣/٧ بشدة أي علاقة بين صبحي ياسين والحركة القسامية.

٨٩ ياسين، مصدر سابق، ص. ٢٣؛ عبد الستار قاسم، الشيخ المجاهد عز الدين القسّام، بيروت: دار الأمة، ١٩٨٤، ص. ٨٥.

٩٠ الحوت، مصدر سابق، ٨٨٤-٨٨٦. لم يكن هناك سبب سياسي أو غير ذلك لئلا يذكر المفتي علاقته بالقسّام عندما نشر كتابه حقائق عن قضية فلسطين إلا إذا لم تكن هذه العلاقة موجودة حقيقةً. وحول هذه القضية راجع أيضاً شهادة القسامي إبراهيم الشيخ خليل، في شؤون فلسطينية «رسالة من مجاهد قديم»، مصدر سابق، ٢٦٧-٢٦٩. لاحظت آن ليش معلقاً على علاقة القسّام بالنخبة السياسية الفلسطينية، أن اندلاع ثورة القسّام أدى ربما من غير قصد إلى تقويض حملة الأحزاب السياسية للضغط على الإنجليز لتشكيل مجلس تشريعي. راجع آن موسيلي ليش، سياسات عربية في فلسطين، ١٩١٧-١٩٣٩، (بالإنجليزية)، إثّاكا، نيويورك: مطبعة جامعة كورنل، ١٩٧٩، ص. ٣٤.

بالضرورة متوافقا عام ١٩٣٥. وصحيح أيضاً أن حركة القسّام كانت بعيدة عن كونها محاولة طموحة لادعاء قيادة الفلسطينيين وتبرير ذلك بالخطاب الديني، لكنها كانت محاولة لتغيير البرنامج القائم للسياسة الفلسطينية في وقت كان فيه المشهد الفلسطيني والعربي يتغير جذرياً بشكل متزايد. يجب أن نشرح بنية وتاريخ منظمة القسّام ليتم شرح الفرق بين وضع حركة القسّام قي سياق صراع القوى أو رؤيتها بمعيار الجهاد الإسلامي.

عكس إيمان القسّام بالمواجهة المسلحة كوسيلة للنضال ضد احتلال أجنبي وغير مسلم لأراض إسلامية فهماً مسبقاً للجهاد الإسلامي. تطورت تفسيرات الجهاد في الفترة الإسلامية المعاصرة في العقود الأخيرة من القرن الثامن عشر عندما بدأت السلطة السياسية للإسلام تتراجع في الأراضي التي يقطنها المسلمون. ويمكن للمرء، دون الدخول في نقاشات نظرية مفصلة[٩١]، أن يجد أنه في بداية القرن العشرين كانت هناك خلافات بين المسلمين فيما إذا كان إعلان الجهاد من امتيازات الخليفة، وفيما إذا كان على المسلمين الهجرة من أراضي الحرب التي لا يحكمها الإسلام، إلى أرض الإسلام، وفيما إذا كان من الممكن إعلان الجهاد ضد قوة سياسية غير مسلمة، إذا ما كان المجتمع المسلم آمناً على كل أعماله اليومية ويعيش بالحد الأدنى المعقول. لقد حل انبثاق عالم إسلامي بدون خليفة بعد الحرب العالمية الأولى ومحكوم في الغالب من قبل قوى أجنبية، معظم القضايا المعلقة التي أطاحت بفكرة الجهاد في القرن الماضي، لقد رأى العديد من قادة المسلمين، من علماء وغيرهم على حد سواء أن الدعوة إلى الجهاد ضد المحتل الأجنبي ليس أمراً شرعياً فحسب بل واجباً أيضاً. لقد كان المحرك الرئيسي لإعلان الجهاد هو تقدير الوضع الراهن وتقدير توابع خطوة مماثلة على معيشة المسلمين وما يلحق بهم من خسائر. رغم أن الإصلاحيين العرب الإسلاميين الأوائل مالوا للتأكيد على الإصلاح والإنجاز الداخلي أكثر من مواجهة المستعمرين الأجانب[٩٢]، فقد شكلت هزيمة العرب والمسلمين في الحرب العالمية الأولى إحباطاً لخطاب الإصلاح.

منذ عام ١٩٢٠ فصاعداً لم يدعم المصلح الكبير السيد محمد رشيد رضا الدفاع عن حرية المسلمين بالقوة فحسب، لكنه أصبح أيضاً داعماً نشطاً للثورة السورية عام ١٩٢٥، والقتال الفلسطيني ضد الإنجليز والصهيونية، والقتال

٩١ لنظرة شاملة حول ممارسة المسلمين للجهاد منذ بداية القرن التاسع عشر، راجع رودولف بيترز، الإسلام والاستعمار: مذهب الجهاد في التاريخ المعاصر، (بالإنجليزية)، ذي هانمو: موتون للنشر، ١٩٧٥.

٩٢ لاحظ اللورد كرومر أنه إذا ما أجبر إصلاحي على الاختيار ما بين التعاون مع مستعمر أجنبي (عادل وعقلاني) ومواطن محلي معادٍ للتحديث، فإنه سيختار الأول. اعتبر كرومر في العقد الأخير من حكمه لمصر أن الشيخ محمد عبده ومؤيديه هم «الحلفاء الطبيعيون للإصلاح الأوروبي»، راجع لورد كرومر، مصر الحديثة، (بالإنجليزية)، لندن: ماكميلان، ١٩٠٨، جزء ٢، ١٧٩-١٨٠.

المغربي ضد الإسبان والفرنسيين. ولذلك فقد كان القسّام نتاج بيئة كانت قد شكلت منطقها الخاص.

عندما وصل القسّام إلى حيفا عام ١٩٢١، سرعان ما تكونت لديه مشاعر بالنفور من حياة الرخاء والحداثة التي عاشتها هذه المدينة العصرية[٩٣]. ومع أنه كان من المعتقد أنه مسئول عن قيادة مسار الجهاد، فإن عدم ألفته مع البيئة والناس كانت مشكلة حقيقية. فعلى العكس من سوريا، فقد كانت فلسطين بشكل أكبر بلداً متماثلاً مع طبقة من القادة يمكن تحديدها لكنه بدأ بالدعوة إلى الجهاد في منتصف العشرينيات بعدما زاد تأثيره في حيفا والمنطقة الشمالية وبعد ما زادت معرفته بالبلاد وقضاياها. ورغم أنه لم يكن قد بدء بعد بالتحضيرات الفعلية للصراع المسلح، فإن خلفيته حول الوضع العربي الإسلامي كانت تقوده على هذا الدرب. لقد كانت نقطة التحول في التزام القسّام نحو فلسطين هي أحداث حائط البراق[٩٤]. لم تكن المواجهات بين العرب واليهود عام ١٩٢٩ مؤشراً على تصاعد العنف بين العرب واليهود فحسب، وإنما كانت أيضاً مؤشراً على تأثير الإجراءات القاسية التي اتخذها الإنجليز ضد الفلسطينيين بما فيها إعدام ثلاثة نشطاء فلسطينيين[٩٥]. لقد تحول إيمان القسّام العميق بالجهاد إلى تحضيرات فعلية للصراع المسلح تحت تأثير الغضب الشعبي العام والحزن في تلك الأوقات التي كانت مشحونة بشدة[٩٦]. لذلك لم يعد همَّه الرئيس بعد ذلك تحميس المؤيدين والأتباع الذين انجذبوا إليه في المسجد، لكنّه كان يبحث بنشاط عن عناصر مقاتلة وينظمهم ويدربهم، لقد كان عمال المدينة الذين ترددوا بانتظام على مسجد الاستقلال، وأعضاء جمعية الشبان المسلمين، وفلاحو الشمال، الذين كانوا ميدان نشاطه الرئيس، هم الأرضية المناسبة التي بحث فيها عن مجاهدي المستقبل. وفي ما يلي نبذة مختصرة عن خلفيات عدد من القادة القساميين:–

- خليل محمد عيسى (المعروف بأبي إبراهيم الكبير): فلاح من منطقة رام الله انتقل لاحقاً إلى حيفا حيث أصبح صاحب دكان صغير، هو أحد أتباع القسّام الأوائل، وخليفته المباشر في قيادة المجموعة[٩٧].
- فرحان السعدي: رجل قوي قاطع طرق وجندي عثماني سابق من قبائل السعدية. التحق السعدي بقوة شرطة فلسطين عام ١٩٢٥، لكنه استقال منها تحت تأثير القسّام عام١٩٣٠، ومن خلال صلته مع القسّام طور ميلاً دينياً قوياً. وقد ساعد على تجنيد عدد من أفراد قبيلته، أبرزهم القسامي الآخر نمر السعدي، وقد لعب دوراً بارزاً في الكفاح المسلح في فلسطين في الفترة ما بين عامي ١٩٢٧ و١٩٣٦. في تشرين ثاني ١٩٣٧ تم أسره وشنقه سريعاً، وكان صائماًوفي الثمانين من العمر[٩٨].
- حسن الباير: فلاح وقاطع طرق من منطقة جنين تحول تحت تأثير القسّام إلى مسلم ملتزم، اعتقل بعد معركة يعبد وحكم بالسجن لمدة ١٤ عاماً[٩٩].
- مصطفى علي الأحمد: قروي من صفورية، وعضو جمعية الشباب المسلمين فيها، جند بعد عام ١٩٢٩. اعتقل بعد عملية مبكرة للمجموعة ضد مستوطنة نهلال الصهيونية في كانون أول ١٩٣٣[١٠٠].
- عطية أحمد عوض: قروي من منطقة حيفا كان موظفاً في السكة الحديدية الفلسطينية، ظهر بعد موت القسّام كقائد قوي ومؤثر لمجموعة مسلحة كبيرة في التلال الشمالية. قتل في أحداث آذار عام ١٩٣٨.
- يوسف سعيد أبو درة: فلاح من شمال فلسطين، أخرجت عائلته من أرضها عام ١٩٢٥ بعد بيعها من قبل مالك غائب إلى المستعمرين اليهود، وتم تجنيد أبو درة في حيفا عندما كان يعمل عاملاً هناك. رغم أنه اعتقل وسجن بعد معركة يعبد، إلا أنه أطلق سراحه لاحقاً ليظهر مرة أخرى كقائد رئيسي في الثورة ما بين عامي ١٩٣٦ و١٩٣٩. اعتقل أبو درة من قبل الجيش الأردني خلال عبور نهر الأردن عام ١٩٣٩ وسلم لاحقاً للإنجليز وأعدم في تاريخ ٣٠–٩–١٩٣٩[١٠١].

كان أعضاء المنظمة القسامية يجمعون حسب المنطقة الجغرافية التي أتوا منها. ورغم السرية التي أحاطت بوجود المنظمة، لم تتم المحافظة على الحدود الجغرافية بدقة دائماً، إما بسبب تداخل الروابط العائلية أو بسبب الحماس الزائد لدى الأعضاء. شكلت المصادر القسامية وغير القسامية العربية صورة مبالغاً فيها لبنية المنظمة القسامية[١٠٢]. الأمر الذي لا

---

٩٣ حمودة، مصدر سابق، ص. ٥٠؛ خلف، مصدر سابق، ص. ٩٠.

٩٤ حول دعوة القسّام للجهاد في مسجد الاستقلال، راجع مجلة الرابطة العربية، ١٩٣٦/٩/١٦؛ قاسم، مصدر سابق، ص. ٣٢.

٩٥ حول ردة فعل القسّام على إعدام عطا الزير، محمد جمجوم، فؤاد حجازي في ١٩٣٠/٦/١٧، راجع حمودة، مصدر سابق، ص. ٤٦.

٩٦ نويهض، مصدر سابق، ص. ١١٠، يمكن اعتبار صيف عام ١٩٢٩ كبداية لتنظيم المجموعة. كامل محمود خلّة، فلسطين والانتداب البريطاني، ١٩٢٩-١٩٣٣، بيروت: مركز الأبحاث، ١٩٧٤، ص. ٣٧٦، يقتبس من القسامي أبو إبراهيم الكبير، الذي يحدد أيلول ١٩٢٨ بأنه التاريخ الذي تزامن مع بداية الصراع العربي الصهيوني على حائط البراق في القدس. وحسب أبو إبراهيم، فإن القسّام وقع تحت ضغط أتباعه الذين أرادوا رد فعل عربي على الأخطار المتنامية للمشروع الصهيوني.

٩٧ أوراق تيغارت، صندوق ١، ملف ٣/ ٢ (BS 1262) ص ٢.

٩٨ أوراق تيغارت، مصدر سابق، ١٥، ص ٣ تصريح دياب العبد الحميد الفاهوم من الناصرة؛ (الإرهاب، ١٩٣٦-١٥٣٧)، ص. ١١-١٥؛ زعيتر، الحركة الوطنية الفلسطينية، ١٩٣٥-١٩٣٩، بيروت: مؤسسة الدراسات الفلسطينية، ١٩٨٠، ص. ١-٣٤، نويهض، مصدر سابق، ص. ١١٧.

٩٩ حمودة، مصدر سابق، ص. ٥٣ وص. ١١٣.

١٠٠ تصريح مصطفى علي الأحمد، ٢٩ أيار ١٩٣٣، أوراق تيغارت، صندوق ١، ملف ٣.

١٠١ أوراق تيغارت، صندوق ا، ملف ٣، (DS1262)، ياسين، مصدر سابق، ص. ٢٧٢؛ زعيتر، مصدر سابق، ص. ٣٦٣ وص. ٣٧٤.

١٠٢ أوراق تيغارت، ١٥٢، ص ٢-٣ .

يمكن إثباته بأدلة قوية.

يشير عزت دروزة، وهو شاهد نشيط ومتحمس على هذه المرحلة إلى أنه لم تكن هناك منظمة أو حزب قسامي بالمعنى الحقيقي حتى عام ١٩٣٥[١٠٣]. في دراسة مفصلة لهذه القضية، مبنية على مقابلات مكثفة مع نشطاء قساميين، عزز قاسم وجهة نظر دروزة[١٠٤]. من المؤكد أنه لم يكن هناك بنية متسلسلة للقيادة، رغم أن معظم أعضاء التنظيم عرفوا قائدهم أو كان يفصلهم عنه مستوىً أوشخص واحد[١٠٥]. كذلك كان هناك مبالغة في عدد القساميين قبل معركة يعبد. ويبدو الرقم الذي أورده ياسين وكيالي مابين مئتين إلى ثمانمئة مناصر غير واقعي[١٠٦]، لأنه ما كان للمجموعة أن تحافظ على نفسها في ظل تدقيق قوات الأمن لمدة خمس سنوات مع هذا العدد الكبير. إن أي تقدير يترواح ما بين خمسين إلى مئتي عضو أو مناصر مع بعضهم البعض ربما يكون تقديراً أكثر معقولية[١٠٧]. هذا التقدير لا ينطبق على عدد الأتباع الذين رافقوا القسّام إلى الجبال في تشرين الثاني ١٩٣٥ والذين يعتقد أنهم كانوا ما بين عشرين إلى خمسة وعشرين رجلاً قليلي التسليح[١٠٨]. لقد جعلت بساطة تركيب المجموعة، وتلقينها المباشر للجهاد، وافتقارها إلى اسم خاص بها، كل هذا جعلها صدىً لتجربة القسّام في شمال سوريا[١٠٩]. لقد كانت المجموعة شعبة منظمة ومحدودة الهدف عازمة على تبني الكفاح المسلح على أمل إشعال ثورة شعبية. إن النموذج المبدع لبرنامج الحركة الذي يورده ياسين[١١٠]، والذي يتضمن أن هدف القسّام كان السعي لتقويض مكانة القادة الفلسطينيين في ذلك الوقت وحصار القيادة السياسية للأعيان، لا يعكس الحقيقة.

١٠٣ راجع مثلاً ياسين، مصدر سابق، ص. ٢٢-٣٤، كيالي، مصدر سابق، ص. ١٨٠، حمودة، مصدر سابق، ص. ٥١ وص. ٥٥، الحوت، مصدر سابق، ص. ٣١٨-٣٢٤.

١٠٤ دروزة، مصدر سابق، جزء ٣، ص. ١١٦.

١٠٥ قاسم، مصدر سابق، ص. ٦٠٤.

١٠٦ بعد اعتقاله في ١٩٣٣، قدم مصطفى علي الأحمد اعترافاً مفصلاً تحت التعذيب للشرطة، يورّط على الأقل ١٢ عضواً من المجموعة، بما فيهم القسّام نفسه.

١٠٧ ياسين، مصدر سابق، ص. ٣٣-٣٤، كيالي، مصدر سابق، ص. ١٨٠-١٨١.

١٠٨ أحمد الشقيري، أربعون عاماً في الحياة العربية والدولية، بيروت: دار النهار،١٩٦٩، ص. ١٤٦، وقد دافع عن بعض القساميين في المحاكم، وقدر عددهم بنحو (٥٠) عضواً .

١٠٩ حمودة، مصدر سابق، ص. ٧١-٧٢، ياسين، مصدر سابق، ص. ٤٢.

١١٠ صبحي ياسين، نظرية العمل لاسترداد فلسطين، القاهرة: دار المعارف، ١٩٦٤، ص. ١٧-١٨.

يعبد وما بعدها

لقد بدأ القسّام ورفاقه الأوائل تحضيرات الثورة بعد الحصول على فتوى مكتوبة من الشيخ بدر الدين التاج الحسني عام ١٩٣٠ يشرّع لهم فيها إعلان الجهاد ضد الإنجليز واليهود في فلسطين[١١١]. وكان القسّام في اجتماعاته السرية بأتباعه يكرر قراءة الفتوى لهم. لكن الأعمال الأولى للمقاومة المسلحة في فلسطين لم تطلقها مجموعة القسام، لكن مجموعة أصغر وأكثر عفوية.

نشأت مجموعة الكف الأخضر تحت قيادة أحمد طافش في محيط صفد في تشرين أول ١٩٢٩[١١٢]. لقد شنت المجموعة عدة هجمات على المستعمرات اليهودية قبل أن يتم تعزيزها بعدة ثوار دروز غادروا جبال حوران السورية بعد قمع الثورة السورية، ونقلت المجموعة نشاطها إلى منطقة عكا تحت ضغط الشرطة والجيش. لكن العمليات العسكرية المكثفة ضد المجموعة زادت في الأشهر الأولى من عام ١٩٣٠، بدعم فرنسي وأردني، هذه الهجمات قادت أخيراً إلى تمزق المجموعة واعتقال قائدها.

ربما بدأ القساميون حركتهم الأولى في ٥ نيسان ١٩٣٠ متأثرين بتحرك طافش. كانت مستعمرة الياجور اليهودية هدف هجومهم الذي قتل فيه ثلاثة مستعمرين[١١٣]. وبعد يومين قتل القساميون وجرحوا مستوطناً يهودياً في مستعمرة نهلال[١١٤]، وكانت ذات المستعمرة هدفاً للهجوم في ١٢ كانون أول ١٩٣٢ بتفجير عبوة ناسفة محلية الصنع، مما أدى إلى قتل مستوطنين[١١٥]. وبسبب الغضب اليهودي العارم أطلقت الحكومة تحقيقاً منظماً حول هذه الحوادث، لكن ذلك لم يحرز نجاحاً مباشراً. ولكن بعد ستة أشهر وخلال تفتيش عرضي في بيت مصطفى علي الأحمد، عضو جمعية الشبان المسلمين في صفورية، تم العثور على عبوة ناسفة مشابهة للمستعملة في الهجوم. أدلى أحمد باعتراف مفصل للشرطة، اعتقل بعده عدد من القساميين وتم التحقيق معهم بما فيهم القسّام نفسه،

١١١ الإرهاب، ١٩٣٦-١٩٣٧، ص. ٨، أوراق تيغارت صندوق١، ملف ٢/٣، على كلٍ فقد أتى تيغارت بخطأ في تهجئة (الحسيني) كحسين. حولَ الشيخ محمد بدر الدين الحسني (١٨٥٠-١٩٣٥)، راجع عمر رضا كحالة، معجم المؤلفين، بيروت: دار إحياء التراث، ١٩٥٧، ص. ١٢٠، وص. ١٣٩؛ أحمد تيمور، عالم الفكر الإسلامي في العصر الحديث،القاهرة: لجنة نشر المؤلفات التيمورية، ١٩٦٧، ص. ٢٧١ - ٢٨٨؛ محمدالحافظ ونزار أباظا، تاريخ علماء دمشق في القرن الرابع عشر الهجري،دمشق: دار الفكر، ١٩٨٦، جزء١، ص. ٤٧٣-٤٩٤.

١١٢ تشانسلر إلى باسفيلد، ١٩٣٠/٢/٢٢ ، CO 5/190/733 ... من تلغراف مادة كتابية من H.Q.R.A.E في القدس س إلى ١٩٣٠/٣/١٥، Air Ministry CO 733/190/5.

١١٣ بورات، الحركة الوطنية العربية الفلسطينية، ١٣٤.

١١٤ حمودة ، مصدر سابق،ص. ٥٦.

١١٥ جريدة الجامعة العربية، ١٩٣٣/١٢/٢٩، ملاحظة حول حملة الإرهاب ، ١٩٣٧/١٢/١٧، أوراق تيغارت، صندوق ٢، ملف ٤.

وتم إطلاق سراحهم، لعدم كفاية الأدلة، باستثناء اثنين، أحمد الذي أعدم شنقاً، وأحد الفلاحين الذي حكم بالسجن لمدة خمسة عشر عاماً[116]. تمت تبرئة خليل محمد عيسى الذي أحضر هو الآخر إلى المحكمة. لقد كان تحمّل عيسى لإجراءات التحقيق هو المفتاح لحماية القائد القسّام وباقي المجموعة. لكن الدمار الذي ألحقته هذه الحادثة كان أكبر من أن يتم تجاهله. قررت المجموعة تعليق نشاطاتها لمدة من الوقت بسبب تعرضها لمراقبة أجهزة أمن حكومة الانتداب والمخابرات الصهيونية.

وعلى العكس من استنتاجات لاشمان أن السلطات البريطانية لم تولِ اهتماماً بالوضع[117]، فإنه ظهر أن القسّام كان قد وضع تحت المراقبة الحثيثة المباشرة بعد محكمة عملية نهلال، ممّا عمق إحساس القسّام بالحصار في مطلع عام ١٩٣٥ ودفعه إلى النتيجة المنطقية لمسعاه وهي الانسحاب إلى الجبال[118]. في ١٨ تشرين الأول ١٩٣٥ وقعت محاولة صهيونية لتهريب شحنة ضخمة من السلاح والذخائر، وتم ضبطها صدفةً في ميناء يافا، مما زاد التوتر بين العرب واليهود غير الفلسطينيين[119]. وفي استجابة لهذه الكارثة قامت مجموعة وطنية في نابلس بقيادة أكرم زعيتر بالدعوة إلى احتجاج عام في ٢ تشرين الثاني، (الذكرى السنوية لوعد بلفور عام ١٩١٧)، وفي اليوم المعين وصلت إلى نابلس وفود من منظمات فلسطينية مختلفة، سياسية وغيرها، وكان هناك في نفس الوقت مسيرة احتجاجية في حيفا، كان أبرز المشاركين فيها القسّام وجمال الحسيني[120].

انعكس غضب واحتجاج الفلسطينيين في عمان والقاهرة ودمشق وبغداد، حيث قامت مظاهرات موازية لدعم الفلسطينيين. وإذا كانت استراتيجية القسّام هي الدفع باتجاه انتفاضة شعبية، فقد كانت هذه اللحظة تبدو مناسبة جداً للأخذ بزمام المبادرة. لذلك بعد الثاني من تشرين أول بقليل، غادر مع مجموعة من أتباعه حيفا باتجاه التلال الشمالية[121]. وخلال المشاورات التي سبقت مغادرة حيفا، أبدى عدد من رفاق القسّام شكوكاً حول مستوى جاهزيتهم[122].لكن ربما لم يصرحوا حول آرائهم هذه بشكل واضح احتراماً لقائدهم. وضدَّ الاعتقاد السائد، فقد أنكر القسامي سليمان أبو حمام أن القسّام اندفع إلى الانخراط السريع في العمل المسلح. وحسب أبو حمام فقد كانت خطة المجموعة في البداية أن تبدأ بعملية تجنيد مكثف للمجاهدين من القرى الشمالية والعمل على زيادة الجاهزية والاستعداد[123]، ويمكن تفسير سياق الأحداث التي قادت إلى المعركة المصيرية في يعبد بطريقة أخرى.

من بين آخر الأمور التي كان على القسّام القيام بها في حيفا إرسال مساعده محمود سليم المخزمي إلى القدس في مهمة لإخبار المفتي بنية المجموعة ومخططها وطلب دعمه[124].تجاوب المفتي بإرسال مبلغ من المال لم يعرف قدره بالضبط، وكانت هذه على الأغلب المناسبة الأولى التي كان على القسّام أن يظهر فيها نواياه للمفتي. أمّا القائد الفلسطيني الآخر الذي أُعْلِم بتحرك القسّام فكان رشيد الحاج إبراهيم من حيفا[125]. بقي عدد من القساميين من حيفا في المدينة لتوفير الدعم والعون مستقبلاً، وكان من بينهم أبو إبراهيم الكبير، الذي لم يشارك في معركة يعبد، وعاد للظهور لاحقاً كواحد من قادة ثورة ١٩٣٦–١٩٣٩.

عسكرت مجموعةالقسّام بداية الأمر على جبل فقوعة قرب قرية نورس، حيث التحق به هناك فرحان السعدي[126]، وحافظت المجموعة على روتين ينتظم أحياناً ولا ينتظم أخرى من الصلاة والاستماع إلى مواعظ قائدهم عن الجهاد نهاراً، وزيارة القرى المجاورة ليلاً. خلال إيصال رسائلهم إلى القرويين يبدو أنهم استقبلوا بحرارة وربما نجحوا أيضاً في تجنيد متطوعين جدد. في ٧ تشرين ثاني انطلقت مجموعة صغيرة من الرجال من المعسكر الرئيسي، التقت بضباط شرطة في بيارات الحمضيات في عين حارود. وعلى العكس من تحذيرات قائدهم بتجنب الصدام المبكر، فإن المجموعة أطلقت النار على الشاويش اليهودي موشي روزنفيلد وقتلته، وتجنبت زميليه العربيين[127]. أعطى القسّام تعليمات مباشرة للمجموعة بالتحرك، في ذلك الوقت كانت الشرطة مع مخبرين متنكرين بملابس بسيطة، قد أطلقت حملة بحث شرسة في

١١٦ أوراق تيغارت، مصدر سابق، خلة، مصدر سابق، ص. ٣٧٩. لم توضح المصادر طبيعة علاقة القيادة بين القسّام ومجموعة من أتباعه. وقد شنت عدة هجمات ما بين نيسان ١٩٣١ وحتى نهاية ١٩٣٢.

١١٧ لاشمان، مصدر سابق، ص. ٦٥.

١١٨ الحوت، مصدر سابق،ص. ٣٢٦، نويهض، مصدر سابق، ص. ١١٤.

١١٩ جريدة الجامعة العربية، ١٩٣٥/١٠/٢٢، زعيتر، الحركات الوطنية، (١٩٣٥/١٠/١٩).

١٢٠ جريدة الجامعة العربية، ١٩٣٥/١١/٤، جريدة فلسطين ١٩٣٥/١١/٤.

١٢١ خلة،مصدر سابق،ص.٣٨١؛ ونويهض،مصدر سابق، ص. ١١٤، أشارا بشكل خاطئ إلى أن القسّام غادر حيفا في تشرين أول وعلى كل، ولما كان القسّام قد شارك في مسيرة الاحتجاج في ٢ تشرين الثاني فإن الانسحاب إلى الجبال يجب أن يكون قد تم بعد هذا التاريخ. ياسين، الثورة العربية، مصدر سابق،ص. ٢٦٧.

١٢٢ مجلة الثورة الفلسطينية، عدد ٩٩، ١٩٦٩/٩/١٥،»تعليق من أبو إبراهيم الكبير«، خليل، مصدر سابق،ص. ٢٦٧.

١٢٣ سليمان أبو حمام، مقابلة شخصية، ١٩٩٠/٣/٧، راجع أيضاً خلّة، مصدر سابق،ص. ٣٨.

١٢٤ حمودة، مصدر سابق، ص. ٧.

١٢٥ نويهض، مصدر سابق، ص. ٢٠٢.

١٢٦ أ. ه.كوهين، «أحداث تشرين الثاني»، ١٩٣٦/١١/٢٠، أ. ص. S٢٥/٤٢٢٤، شابيرا إلى فنكلستين، ١٩٣٦/١٠/٢٨، S٢٥/١٠٤٥٩؛ ياسين، الثورة العربية، مصدر سابق، ص. ٢٧.

١٢٧ شابيرا إلى فنلكستين، مصدر سابق؛ خلة، مصدر سابق،ص. ٣٨٢، وحسب عبد الستار قاسم،مصدر سابق،ص. ٥٦، فإن قتل روزينفيلد حدث في ١٤ وليس في ٧ تشرين الثاني. وبعد هذا الحادث غادر فرحان السعدي والمجموعة إلى نورس.

المنطقة[١٢٨].في ١٧ تشرين الثاني تم تضييق الخناق على المجموعة في منطقة كفرقود قرب مدينة جنين حيث قتل القسامي محمد أبو القاسم خلف في تبادل قصير لإطلاق النار[١٢٩]. في اليوم التالي انقسمت مجموعة القسّام إلى مجموعتين: الأولى، أخذت الاتجاه الشمالي، بينما توجهت الثانية بقيادة القسّام إلى يعبد غرباً،وقد انتهى مسيرها صبيحة ٢٠ تشرين الثاني ١٩٣٥ بمواجهة دامية مع قوات الشرطة.

لقد حفظ إصرار القسّام على القتال حتى النهاية، في الوقت الذي كان فيه واضحاً أنه ورفاقه سيحفظون أرواحهم إذا ما استسلموا، مكانة بارزة له في الأسطورة الفلسطينية[١٣٠]. ترددت أصداء استشهاد القسّام في فلسطين والأقطار العربية المجاورة. رأى الكثير من الفلسطينيين استشهاد القسّام أمراً بعيداً عن خلافات الأعيان العقيمة وازدواجية البريطانيين. ظهرت الإشارة الأولى على ظهور بديل للقساميين في جنازة القسّام واثنين من رفاقة في حيفا في ٢١تشرين الثاني.

سلمت السلطات البريطانية جثامين الشهداء لعائلاتهم، غير متوقعة لرد فعل شعبي. كان الاستقلالي الشاب أكرم زعيتر أول من تنبه لأهمية الحدث للصراع الفلسطيني داعياً في بيان منشور إلى وداع حاشد للشهداء[١٣١]. في اليوم التالي عمّ الإضراب حيفا، وتجمع الآلاف من الغاضبين المفجوعين في المدينة، رغم عدم حضور أي من قادة الأحزاب الرئيسية. غطى رشيد الحاج إبراهيم جثامين الشهداء الثلاثة، كل واحدٍ بعلم دولة عربية مستقلة: العراق، السعودية، اليمن. وبعد الصلاة قدم الشيخ يونس الخطيب القاضي السابق في مكة زمن حكم الأشراف رثاءً عاطفياً مطولاً. ثم انطلقت الجنازة ببطء من المسجد الكبير في حيفا إلى مكان الدفن مستغرقة عدة ساعات. وفي يوم الجمعة ١١/٢٢ أقيمت الصلوات على أرواح الشهداء في قرى وبلدات فلسطين كافة، وفي عدد من مساجد دمشق[١٣٢].

في الأشهر اللاحقة قاد الاستقلاليون أكرم زعيتر ورشيد الحاج إبراهيم وصبحي الخضرا، حملة متواصلة من التحريض الشعبي وصلت ذروتها في ١٩٣٦/١/٥ في ذكرى القسّام. شهد هذا اليوم تجمعاً كبيراً نظمته جمعية الشبان المسلمين في حيفا التي كانت وقتها تحت قيادة رشيد الحاج إبراهيم[١٣٣]، بينما عقد تجمع آخر في حيفا نظمه مؤتمر الشباب العربي وحضره ممثلون عن أحزاب سياسية عديدة[١٣٤]. لم يعكس هذان التجمعان الانقسام المستمر لدى السياسيين الفلسطينيين فحسب لكنهما أظهرا أيضاً الخشية المتزايدة للنخب السياسية الفلسطينية من صعود العناصر الراديكالية الشابة من الرابطة القسامية التي لا يمكن التحكم بها. حاول الحاج أمين هو الآخر بناء جسور لعلاقة مع القساميين، مدركاً قوة وتأثير حركتهم. وكان يحاولإقامة هذه الصلة من خلال بعض مساعديه الأكثر إخلاصاً وذلك على شكل عروض متكررة بالمساعدة المالية[١٣٥].

كان أتباع القسّام اللذين ظلوا طلقاء في مجموعتين، الأولى اللذين كانوا متورطين من خلال تحقيقات الشرطة أو من خلال اعترافات رفاقهم المعتقلين. حافظ هؤلاء على الهدوء بينما واصلوا التحضيرات لبداية جديدة، أما الفئة الثانية فشملت اللذين لم ينخرطوا في نشاطات مسلحة وكانوا كذلك نقيين من الأدلة القضائية ضدهم، انطلقت محاولات إحياء الحركة القسامية كمجموعة دينية سياسية متميزة من أفراد المجموعة الثانية. تقدم القساميون من الشيخ حسين حمادة والحاج عبد الله أبو يونس بطلب للحصول على تبرع لإنشاء جمعية تحت اسم «جمعية فتيان الجزيرة»، ولكن طلبهم رفض. وكان طلبهم هذا بناء على دعم من قسامیي حيفا وكرروا المحاولة تحت اسم جمعية شباب أبناء محمد، لكن الطلب رفض مرة أخرى[١٣٦].

أما عسكرياً، فقد كان المسن فرحان السعدي هو أول من نجح في إعادة تنظيم المجموعة القسامية المسلحة. في ١٥ نيسان ١٩٣٦ هاجمت مجموعة السعدي سيارة على طريق عنبتا قرب طولكرم[١٣٧]، ممّا أسفر عن مقتل مسافرين يهوديين وجرح ثالث. كانت هذه الحادثة هي الشرارة التي قادت إلى انفجار ثورة عامي ١٩٣٦ و١٩٣٧ كحرب عصابات في الجبال، وقد ظهر القسّاميون كقوة رئيسية في مجموعات قادة الثورة المحلية، وعرفوا بالقسّاميين وكان منهم فرحان

---

١٢٨ نشرت مصادر الحكومة أخباراً تصف المجموعة بقطاع طرق وعصابات، راجع مثلاً جريدة فلسطين، ١٧ و١٩٣٥/١١/١٩.

١٢٩ أ. ه. كوهين، أ. ص. ٩٢٢٤/S٢٥؛ زعيتر، مصدر سابق،ص. ٣٠ - ٣١.

١٣٠ جريدة فلسطين، ١٩٣٥/١١/٢٦ وحقيقة استمرار تبادل إطلاق النار لمدة ٤-٦ ساعات جعلت منها اختياراً مفترضاً للموت.

١٣١ جريدة الجامعة الإسلامية، ١٩٣٥/١١/٢١، زعيتر، مصدر سابق،ص. ٢٨-٣٣.

١٣٢ جريدة الجامعة الإسلامية، ٢٧، ٢٦، ٢٤، ٢٢، تشرين الثاني؛وفي جريدة فلسطين ٢٢، ٢٣، ٢٦ تشرين الثاني ١٩٣٥.

١٣٣ ملخصات المخابرات لكانون ثاني وكانون أول، ٣٥/١٢/٣١ و٣٦/١/٣١، FO ٢٠٠٣٠/٣٧١، تتري CID، ٣٦/١/٢٢. FO/٢٠٠١٨ ٣٧١، زعيتر،مصدر سابق، ص. ٣٤-٤١، (يوميات ١٩٣٥/١١/٢٣ إلى ١٩٣٦/١/٥). حول رد الفعل المصري، راجع جريدة كوكب الشرق، ١٩٣٥/١١/٢٩.

١٣٤ جريدة الجامعة العربية، ١٩٣٥/١/٧، ربما يستحق الذكر أنه بعد معركة يعبد شعر قادة الأحزاب الفلسطينية أنهم فرضوا السيطرة على الشعب (جريدة فلسطين، ١٩٣٥/١١/٣٠).

١٣٥ مقابلة شخصية مع سليمان أبو حمام، دمشق، ٣ آذار ١٩٩٠. ظهر أبو همام بعد معركة يعبد كرمز قيادي للقساميين، راجع أيضاً ملف (تجربة الشيخ) ص. ١٠.

١٣٦ أوراق تيغارت، صندوق ٢١، ملف ٣، ص ٢ DS١٢٦. تحت ضغط الشرطة بدا أن جمعية الشبان المسلمين في حيفا تفككت، راجع رسالة أحمد الإمام إلى نبيه العظمة، ١٩٣٥/١١/٢٦، أوراق نبيه العظمة، ملفات فلسطين ٩٦/٨، مكتبة جامعة المسيتر.

١٣٧ الإرهاب «١٩٣٦-١٩٣٧»أوراق تيغارت، صندوق ١ ملف ٢/٣/ ص. ٩٠؛رسالة المندوب السامي ١٩٣٦/٤/١٩، ٣١٠/٠٧٣٣، ياسين، مصدر سابق،ص. ٣، زعيتر، مصدر سابق،ص. ٥٣-٥٦.

السعدي، عطية أحمد عوض، خليل محمد عيسى، سعيد أبو درة، محمد صالح الحمد، عارف حمدان الأحمد، توفيق إبراهيم، محمود سالم، سليمان أبو حمام، وآخرون[١٣٨]. لقد عاش التراث الجهادي للعالم المصلح عز الدين القسّام واستمر.

الخلاصة

لقد قام الكتاب والنشطاء الفلسطينيون مراراً وتكراراً بإعادة تسليط الضوء على مكانة القسّام في الصراع الفلسطيني ضد الصهيونية وبريطانيا وإعادة رسم صورته. لقد استحضرت الرمزية الهائلة للخيار القسامي بقوة أخيراً في تسمية حركة المقاومة الإسلامية (حماس) جناحها العسكري باسم «كتائب الشهيد عز الدين القسام». في مفاصل مختلفة للتاريخ الفلسطيني المعاصر بدا أن حركة القسّام كانت قادرة على إعطاء شرعية معينة لاحتضان خيار الكفاح المسلح والذي بدوره يشير إلى إصرار الفلسطينيين على هويتهم الوطنية، في الحقيقة لا يجب أن نبالغ في تقدير دور القسّام في تثوير الحركة الوطنية الفلسطينية. ففي منتصف الثلاثينيات كانت الهجرة اليهودية المكثفة تقود الوضع في فلسطين إلى لحظة الانفجار. بعيداً عن المثالية والتضحية بالنفس التي اتسم بها القساميون والنشوة الجماهيرية التي أثاروها، كانت الثورة الفلسطينية في عامي ١٩٣٦ و١٩٣٧ بحاجة إلى قيادة مترسخة اجتماعياً بشكل أكبر وأوسع لتستمر. كان الأمر الرمزي في المواجهة الفلسطينية التي خاضها القسّام هو المعنى المتضمن في استشهاد عالم سوري معروف على تلال فلسطين. لقد أصبح التزام العرب بفلسطين عنصراً رئيسياً في القضية الفلسطينية في السنوات اللاحقة ولعقود آتية.

على كل فإنه نادراً ما تمت دراسة القسّام من زاوية حركة الإصلاح العربي الإسلامي ونهوضها لتسود الساحة السياسية، وانتفاضته في فترة ما بين الحربين العالميتين. ربما تبين محاولات شليفر البحث عن انتماءات صوفية للقسام وتجاهل توجهاته الإصلاحية، توجهات شليفر نفسه أكثر من توجهات القسّام. لقد كان الالتزام السلفي الإصلاحي للقسام واضحاً ليس فقط في انتمائه إلى حلقة محمد عبده في الأزهر، إنما في ممارساته وتصريحاته في سوريا وفلسطين، وكذلك من خلال الانتماءات السلفية الواضحة لأولئك الذين ارتبط بهم أثناء عمله.

يظهر تبني القسّام للكفاح المسلح في سوريا وفلسطين، تماماً مثل عبد الكريم الخطابي في الريف المغربي، الطبيعة المعقدة والمتطورة لحركة الإصلاح العربي الإسلامي. لقد طور طلاب مدرسة الإصلاح العربي الإسلامي رؤية أكثر ثورية للظرف العربي بعد المصائب وخيبات الأمل التي أعقبت الحرب العالمية الأولى، وذلك رغم اهتمامهم المبدئي بعالم الأفكار والبحث عن التغيير الاجتماعي والتعليمي. لقد تحولت النظرة إلى الغرب الذي كان يعتبر مصدر الإلهام لدى محمد عبده ورشيد رضا الشاب وجمال الدين القاسمي وطاهر الجزائري في مطلع القرن، حيث أصبح ينظر إليه كعدو إمبريالي يناهض وحدة العرب واستقلالهم، ويهدد حرمة وخصوصية تاريخهم ودينهم. لقد كان هذا التطور في أيديولوجية الإصلاح العربي هو الذي غيَّر نظرة العرب للغرب قبل صعود «الأصولية الإسلامية» بكثير. لقد كان ما قام به القسّام مقدمة لتبني الكفاح المسلح من قبل الجماعات الإسلامية الناشئة، ويشمل ذلك مشاركة الجماعات الإسلامية السورية والعراقية في ثورة ٣٦–٣٩ في فلسطين، ومشاركة جماعة الإخوان المسلمين في الحرب العربية– الاسرائيلية عام ١٩٤٨، وفي حرب العصابات العربية ضد البريطانيين في مطلع الخمسينيات. لقد كانت هذه الجماعات الإسلامية في مظاهر عدة متفرعة عن حركة الإصلاح العربي الإسلامي.

ترجمة علي موسى

١٣٨ لمزيد من التفاصيل راجع أوراق تيغارت، مصدر سابق. جنباً إلى جنب مع الوثائق التالية DS1262,Bot1, cil ٣١ تصريح الحاج سيد عبد الله من زرعين، ١٩٣٨/١/٢٠، صندوق ١ ملف ٣/٢ تصريح محمد ناجي أبو الرب، ٣٨/١/١٥، صندوق /١ ملف ٢/٣ مكتب مساعد قائد المنطقة، منطقة السامرة، نابلس، (ملاحظة حول احداث الإرهاب الأخيرة في منطقة السامرة)، صندوق ٢، ملف ٣.